



القسم الأول

المقالة الفكرية-الأدبية

معلّمتي، ورقة الخريف^(١)

عفوًا آنستي، داستك قدمي فجرًا، في ساحة المسجد المجاور، كما
الأيامُ الآخر بلا وعي في حقك، ولا تفكر في حقيقتك.
أمّا صباح هذا اليوم البلّوري المبارك، فقد استفاق الإدراك في وجهتك،
واستيقظ الاعتبار من كنانة قلبي... وكم من عبر تمرّ عليّ ولا أبالي؟!
فقليلاً ما تذكّرت، وركّزت، ونظرت... يا ويح قلبي الفاتر، يا حسرتا
على عقلي الصامت.

آنستي، لا يغرنك ازورارُ الناس عنك، جهلاً أو تجاهلاً، ظلمًا أو كبرياء؛
ذلك أنّ نضارة الربيع تغريهم، وأنّ زهو الخضرة يسبيهم، فيكشون
وجوههم عن الجلال منشغلين بزهرة الجمال، ويرمون المعنى في قعر
دهليز الزمان، مبهورين بالشكل والمظهر والفاني من فتات المكان.

التقطتك يدي برفق، مخافة كسرك؛ فأنت الرقيقة قلبًا، الخفيفة ذنبًا؛
لا، بل لا ذنب يُثقلك ويخلد بك إلى الأرض؛ وأنت المرهفة حسًا؛ بينما
الناس في الجفاء والجفوة مذاهب وفنون؛ وأنت -آنستي- شكلك شكل
راحة يدي؛ بذلك التقت اليد، التي هي بعضٌ منّي، باليد التي هي كلُّك؛

(١) الأكاديمية، شرفة البوسفور، صبيحة يوم الثلاثاء، ١ نوفمبر ٢٠١١. نشرت في مواقع منها:
"فيكوس"، مجلة "حراء"...

وإن أکُ سخياً ومعتطاءً ببعضی، فأنتِ جمیعك سخاءً وسخاءً.

نعم، تجاعید جسمک المخملیّ الزهریّ، عنوان الفناء فی الخدمة؛ فربیعاً کنتِ تعملین، والناس حینها یلهون ویلعبون؛ والیوم، لم تحتکری عرش الشهرة، ولم تبالی بکرسیّ النیاشین مثل الکثیرین من بنی البشر.. فأنتِ -آنستی- قد مددتِ ید العون لمن یأتي بعدک، وسافرت إلى عالم الجزاء، هنیئة البال، طاهرة الفؤاد، مطمئنة الباطن.

آه آنستی، لو البشر من معنک یرتشفون، ولحقیقتک یدرکون.. إذن لما كانت حروب، ولا قتل، ولا انقلابات، ولا حقد... فکلُّ واحدة من بنی جلدتک آنستی فی مکانها اللائق بها، تماماً، لا ترتفع عنه ولا تنخفض، ولا تقتل الوقت فی زحزحة أخواتها أو إخوانها من منازلهم، وکلُّ واحدة موقنة أن رزقها ید من لا ینسی، ولا یغفل، ولا یضیع... وأن مصیرها، وحظّها، موثوق بحبل من الإیمان متین... هي هکذا، موحدة بالفطرة، لا تکلفاً، ولذلك کان تسبیحها أثیريّ النفحات، کونیّ اللفحات... ینشر عبیره عند آخر نقطة فی الکون، ویسمعه الجن والإنس وکلُّ الخلائق، بلا خرخشة، لو أرهفوا أذنه، ولو غسلوا قلوبهم بماء الورد.

هکذا، آنستی، کونی لنا مدرّسة، نکن لك تلامذة.. وعلمینا فنّ التفکر والاعتبار، واحملینا علی التسبیح النورانیّ السرمديّ... علمینا أن نقول، ونعی ما نقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿(الزخرف: ١٣-١٤).. لا عند امتطاء المراكب فقط، لكن -کذلك- عندما نعتلي صهوة المعنى والفهم، ونعلو ذروة العلم والعمل... شکرًا، سیدتی... الجميلة الجليلة... شکرًا.

أولى زخات الثلج، تعظني وتبكي^(١)

في مكثبي، أعالي جبال "شمليشا" عبر نافذتي... من بعيد يغمز لي "البوسفور" بعيون لازردية، ومن فوقه جسر العبور من أوروبا إلى آسيا، يرسم أمل مستقبل للعالم جديد؛ يتزحزح فيه المحور من الغرب إلى الشرق، وفوق الجسر ناس، بل بشرٌ من كلِّ جنس ولون، يحملون آمالهم وآلامهم، أحلامهم وأفكارهم، ولا يرى بعضهم من بعض سوى المظاهر والأشكال، أما "السراثر" فتبقى غامضة إلا على من ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩).

فجأة ودون سابق إنذار، يكسر المشهد البعيد مشهدٌ قريب، وكم من بعيد أخفى على العبد نعمة القريب؛ إنها زخات ثلج ناعم هفهاف تنزل في صمت من السماء، فتلامس أغصان الشجر، وتدغدغ أنوف البشر، وتحكي قصة "البياض الذي يقهر السواد"، وهي في ذلك لا تفرق بين سعيد وشقي ولا بين فقير وغني... لكن كل واحد من هؤلاء على اختلاف مصدره ومورده، يستقبلها حسب سعة قلبه ووفق انتشاره وقبضه، فكم من مترف نظر إليها نظرة شزراء بلهاء حانقة، وكم من معدم بسط كفيه إلى السماء والتقط واحدة من "حبات الخير"، فأودعها فاه راضياً مرضئاً، حامداً شاكراً، سعيداً منعماً... «كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (رواه البخاري). زخات الثلج تقول: "أخي، أختي... الدنيا هي قلبك، وقلبك هو الدنيا،

(١) الأكاديمية، صبيحة الخميس، ٢٩ محرم ١٤٢٣هـ / ٢٤ ديسمبر ٢٠١١م. نشرت في مجلة حراء، العدد: ٣٢ (سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٢). وفي مواقع إلكترونية: "فييكوس"، مجلة "حراء"، "المنارة".

فإن يك واسعًا رحبًا صفق الكون مرحًا ورحابة، وإن يك هذا القلب
-وا حسرتاه- ضيقًا حرجًا، عبس الوجود وقطب حاجبيه حسرة وأسفًا...
فانظر ماذا ترى، وارسم على لوحة الزمن أي شكل تريد وأي لون تشاء.
بعض الناس ما أشقاهم؛ يضمخون العالم بالأحمر الفاقع، وآخرون
يسودونه عنوة ويحاربون البياض بشراسة، وآخرون لا يرون لما حولهم
لونًا ولا طعمًا، فهم أحلاف "اللالون" وأحلاس "اللامعنى"، وآخرون..
وآخرون...

أما بعض من عباد الله، فتجدهم يفرشون القفر وردًا وزهراء، ويعبقون
الدنيا عطرًا وعنبرًا، وتأبى شفاههم وصف شيء بالسلب، إذ كل شيء
-سوى الشر- في مذهبهم قابل للقبول، وكل أمر سوى الفساد والقبح
أهل لأن يلتفت إليه... إن هؤلاء هم رسل السماء وخلائف الأنبياء ورواد
الأصفياء... فهم الثلج الذي تتناثر حباته النورانية من السماء... رحمة من
رب الثلج ورب السماء.

آه... ما إن انتهيت من خط أولى كلماتي المرتعشة في وصف أولى
الزخات المتساقطة، حتى افترشت الأرض بياضًا ناصعًا، وها هي ذي
النباتات والحيوانات والحشرات تهلل وتستبشر، فتعلنه حفل زفاف لهذا
العام السعيد، تعلنه بالحمد والشكر والاعتراف بالنعمة للمنعم الحميد؛ أما
الكثرة من البشر -المستعدون لحفل الكريسماس- فهم غافلون سادرون
عن المنعم، عائمون غرقون في محيطات النعم وبحارها ووديانها،
ولسان حالهم يردد: هي هكذا جاءت، وهي من هبة الطبيعة المعطاء، أو
هي شراكة بين الأب والابن وروح القدس، أو هي الصدفة آثرتنا على
العالمين... بل هو التطور، وسلسلة الأسباب المادية، والفهم العلمي...

كل أولئك أنعم علينا هذا الخير العميم... فلم الحاجة إذن للإيمان برب واحد أحد فرد صمد لا نراه ولا نعرفه؟

فتحتُ النافذة والتقطت بيدي اليمنى زخه واحدة لا أكثر، ثم عجَلْتُ في إغلاقها حتى لا أزعكم... والتفت إلى الضيفة، وسألتها بصوت هادئ رفيق: مَنْ ربك، من خالقك، من ذا الذي ألقاك من السماء، ومن الذي اعتنى بك فهبطت من المسافات الشامخة دون أن تتهشم عظامك، ومن أمرك بسقي نبتة، أو دودة، أو طفلة... أو حتى ملحد جاحد كفار؟!

سكتت برهة، وأزاحت النقاب عن وجهها الصبوح، وما درت أنها قتلتني بعينها الحوراوين الكحلاوين النجلاوين، وبخدها المبلبل بدمع سخين، والمجمل بخان وحين، قالت: أهذا سؤال يسأله عاقل؟

قلت: أنا من أبي إبراهيم عليه السلام تعلمت السؤال، ألم يسأل ربه: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة: ٢٦٠)، أفلم يجبه عليه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، ألم يقل بعد ذلك: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

كذلك أنا "ليطمئن قلبي" ... "ليطمئن قلبي" ... "ليطمئن قلبي".

تنهدت وسبّحت واستغفرت ثم قالت: نعم صدقت، إنه الله ربي وربك ورب كل شيء، فسبحانه وهو القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ (ق: ٩-١١).

قلت بأعلى صوتي: "سبحان الله"، ثم التفتت إلى يدي فألفيتها مبللة وقد ذابت الثلجة المعلّمة، ولكنها تركت كلمة محفورة على راحة يدي، فقرأتها مشفقاً منها، باكياً:

أخي، لا تقف في ﴿بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ (ق: ١١)، ولكن واصل واتل قول الحقِّ

مُؤْمِنًا مَوْقِنًا: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق: ١١).

اللهم نجنا يوم الحشر، ويوم البعث، ويوم الخروج... آمين.



رسالة إلى الريح الصقيع^(٣)

ليلاً نزلت...
عند اشتداد الظلمة حللت...
مع عواء الذئاب سريت...
وفي جحور الخفافيش انتشيت...
حملتُ ريشتي لأكتب لك "احتجاجاً"، أو بالأحرى لأخطُ عنك
"مرافعةً"... فتصلبت أصابعي بسببك...
أصلاً، كلُّ شيء يتصلب في حضرتك...
ألسَ الذي تهجم على الأكواخ والبيوت والقصور، فتملأها حقداً
وحنقاً: تغير قلب الزوج على زوجته، وتنفر الابن عن والده؟!
ألسَ الذي يتيم الأيتام مرّتين، وترمل الأرامل فترتين... فتزيد على
حرمانهما حرماناً أشدّ، ولا تبالي؟!
ألسَ مَنْ حوّلتَ وطننا "دشرة"^(٤) للمتصيدين والعملاء، فأغریت
البعض منّا على البعض الآخر، وسكبت روح الانتقام على القلوب، حتى
بات الإخوة يكيّدون لإخوتهم... بلا حنو ولا رحمة؟!
لا تغترّ، أيها الريح الصقيع، فعمرك قصير وحُلمك حقير، وظهرك
قصيم وغدك جحيم.
من هنالك...

(٣) الأكاديمية، شامليشا / إسطنبول، صباح الاثنين ١٦ يناير ٢٠١٢.

(٤) الدشرة: دارجة جزائرية، ومعناها "القرية الصغيرة"، أو مجموعة من الأكواخ، لا تبلغ حجم القرية.

من فوق هضبة بلدتي...
من شامخ القمم...
من غَوْر القلب الرحيم...
من جذور الفكر الحكيم...
من هنالك... يلوح لي شعاعٌ من النور، ويلوح لي طيف من الجنة،
معلنا بأوضح عبارة:

"نعم، أحلكُ وقت للظلام هو في الوقت نفسه بشائرُ أنوار الفجر.
والليل يحمل جنين نور النهار، ويحمل بردُ الشتاء وثلجُه جنين الربيع..."
غداً، ستشرق الشمسُ يا ولدي...
غداً، سيعمُّ الدفءُ يا بلدي...
غداً... هو لنا.. هو خالصٌ للقلوب المؤمنة الضارعة، وهو رهنُ إشارة
الأفتدة المفعمة بالحبِّ والصدق والصفاء.. إنه ملك "العقل والمعقولة"
بلا منازع.

غداً... هو حاضرٌ للقرآن، معانقٌ للإيمان، ملازمٌ للبيان.
آه لو تعرفون... آه لو تصبرون... بضَع ساعات فقط، لا أكثر... سيحلُّ
الفجر... أجل، سيسود الفجر... وإن يك فجرًا كاذبًا، فالفجر الصادق
يعقبه... لكنّه لن يجيء أبدًا إذا أنتم استعجلتم وتهالكتم، لن يأتي أبدًا إذا
أنتم تقاعستم وتكاسلتم.

أمّا إذا تشرنقتم وتمزّقتم، فسيعود الزمنُ إلى الوراء، وسيسير القهقري؛
ويقينًا سيطول ليلكم، بل ليلنا... وليلُ البشرية بقَدِّها وقديدها.
يا بطل الحقيقة، يا جيل الأمل، يا أحبَّتي... يا شباب العشرة والعشرين
حولاً... باختصارٍ، أنتم طيفُ الأمل، من مُهْجكم سيغدو الليل قصيًّا،

وسيكون النهار دنيًا.

بكم فقط، لا بغيركم... فلا تبدّدوا لحظة واحدة في التفاهات
والسخافات والحماقات.

صلّوا الثانية بالثانية، والثالثة بالثالثة... في نسج خيوط المستقبل.. بلا
توانٍ ولا تلكيٍ.

ثقوا في أنفسكم، فنحن جميعنا ثقة فيكم.
لا تُصغوا لمن سوّد خاطركم، ولا تكثرثوا بمن وضع أمامكم علامة
السلب "ناقص"، فلم ير فيكم سوى الخراب والسراب.

لا تبدّدوا... صلّوا وثقوا... لا تُصغوا ولا تكثرثوا... لكن، ارحموا،
ووقّروا، واحترموا؛ فكلُّ من عاش قبلكم أحبّكم، حتى الذي سبّكم
-يومًا- إنما فعل ذلك حبًّا لكم، غير أنه لم يدرك ولم يع كيف يعبر عن
كوامنه... أَمِنَ العقل أن تُردَّ هديته على وجهه، حتى وإن جاءت ننتة منتنة.
أيّها الريح الصقيع... خطابي لك كلمات وعبارات، وخطاب
جيل البطولة سيكون بالعمل وبالحركة وبالإبداع وبالتفاني... سيكون
كلامهم فعلاً، وفعلهم فعلاً... ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)... بل سيقال لهم رغم أنوفهم: ﴿انْتَظِرُوا إِنَّا
مُنْتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٨).

أيها الريح الصقيع! لا تنتظر مني رسالة، ولا احتجاجًا، ولا مرافعة...
فقد ولّى "زمن التنديد"، ولن يعود... بحول الله لن يعود... ذلك أنَّ الفعل
غداً هو الجواب، وشبابنا اليوم هم فصل الخطاب.

أما أنا، فحسبي أني قرأت -ساجدا- فجر هذا اليوم قوله تعالى: ﴿رَبِّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (المزمل: ٩) فجفّ حلقي،

وهطل كالشلال عرقي... وقلت: "إذن، الله تعالى، ينتظر مني اللحظة،
أن أتخذه، وأقبله، وأجعله وكيلاً لي؟! لكن، ما بالي ترددت، وما دهاني
فسوّفت؟!"

وحينها تجملت، وتشجعت، فقلت: "يا ربّ، وكّلتك... أنت وحدك
وكيلي... أنت سبحانك حسبي... اللهم اهزم بقدرتك الصقيع الذي أطال
ليل أمّتي... وابعث من جيل الأمل خالداً، وصلاح الدين، والفتاح...
آمين... آمين... آمين..."

فاستغرقت في البكاء... حتى غرقت في محيطات دمعي... أملاً
مشرقاً، وفجرًا جديداً.



حبيبتي، يا زهرة "اللاله" (٥) .. (٦)

أنا لا أعرف حقيقتك، ولا أدرك كنهك، فلقد كنتِ ولماً أكن، وستبقين بعد رحيلي.

في رقتك - يا عزيزتي - معاني الفتوة، وفي ألوانك دلائل الأخوة؛ فيك التحم الجمال بالخيال، وفي توجُّهك أمارات القرب من خالقك، والسؤال.

ومن عجب أن عيد ميلادك هو ذات عيد ميلادي، لكن شتان بين عيد وعيد؛ إذ بينما أنت تشبهين العمامة على رأس الأمراء والعلماء، أنا لا أشبه إلا نفسي، ولا أتمرغ إلا في ضحضاحي؛ فلا كنتُ من صنف الأمراء، ولا انتظمت بين سلك العلماء.. أنت - يا حبيبتي - أميرة على الأمراء، وأنت تفوقين في الشأو كثيرًا من العلماء.

أنت يدٌ مبسوطة نحو السماء، تستمطرين البهاء؛ فتنايلن منه الحظَّ الأوفر... وتستسقين الوصال؛ فتحظين منه بالمكان الأخطر.

أنت كأس شاي منعنع، أو فنجان قهوة رقراقة، تُكرمين جميع الناظرين إليك، المتملِّين بهاءك؛ بلا تمييز ولا إقصاء، لا تبغين الأجرة ولا

(٥) زهرة التوليب، بالتركية "اللاله": نبات من الفصيلة الزنبقية موطنها الأصلي تركيا يطلقون عليها اسم زهرة العمامة؛ لأنها تتكون من عدة طبقات من البتلات الملونة تشبه العمامة التي يلفها الرجال في تركيا حول رؤوسهم. ولقد انتقلت إلى أوروبا منذ ٤٠٠ سنة وانتشرت بها، فوجدت عناية خاصة بزراعتها في هولندا، التي أصبحت رمزًا لها ومصدر دخل كبير. وتركيا تحتفل هذا العام بالعيد العاشر للتوليب.

(٦) إسطنبول، يوم ١٨ أبريل ٢٠١٢. نشرت في موقع مجلة حراء، وفي مواقع إلكترونية عديدة.

الأجر، إلا ممن يعطي ويجزل العطاء.

أنت جرس مقلوب، توقظين فينا القلوب؛ فتغدو ذواتنا ضارعة هفهافة
رفرافة.. كلُّ جرس دونك هو مجرد نسخة طبق الأصل، وهو مجافٍ في
حقيقته لمقاصد الوصل.

يا زهرة التوليب، يا حمراء، يا صفراء، يا بيضاء، يا زاهية الألوان...
علّمينا أن نكون؛ وإذا كنّا، علّمينا أن نحسن كيف نكون؛ وإذا أحسننا،
علّمينا كيف بعد أمدٍ أن لا نخون.

علّمينا -كما أنت- أن تكون لنا حياتان: حياة لما فوق الأرض، وحياة
لما تحت الأرض..^(٧) حياة للآني والزمني والحضاري وللعنفوان، وحياة
للماورائي والإيماني والربّاني^(٨)، أي للرضوان.. لكن -يا حبيبتى- علّمينا
كيف لا نفصم بين هذا وذاك، وكيف نجتمع بين هذه وتلك... في سلاسة
وانسياب... بلا جدل ولا ارتياب.

فأنت أنت، دومًا محمّلة بالصدق والصفاء والوفاء، للخالق المبدع
الملهم، بلا جفاء... أمّا نحن، ففينا ومنّا؛ وكلُّ واحدٍ منّا، له وعليه؛ ساعةٌ
وساعة؛ فساعةٌ نُسَمو وأخرى نخبو، وساعة نقرب وساعة نضطرب... لا
نعرف الاستقرار على حال، ولا نصبر على الحادثات وعسر المآل.

يا زهرة معطاء، ويا ربيبة الكرماء؛ يا من أدمت السجود والقعود والقيام؛
بك الدنيا تشبّهت، ومثلك الأعمار قصُرت.. فيك نتلو قول الجليل لنيّته

^(٧) لزهرة التوليب حياتان : حياة فوق الأرض، تنتهي بالأزهار ذات الألوان الجميلة الحمراء والصفراء والوردية. وحياة أخرى تنتهي بتكوين الأبصال الجديدة، تحت الأرض. وهولندا تصدر منها سنويًا بليونًا بصلّة.

^(٨) "لاله" (Lâle) أو التوليب هي رمز الحب الإلهي، لأنّ حروفها هي نفس حروف اسم الجلالة "الله".

الفضيل: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

فما عابك الله سبحانه، ولا شانك؛ لكنه -تعالى شأنه- جعلك أمانة لنا، فأديت ما عليك خير الأداء؛ إذ كلما جفت قلوبنا، وطغت ذواتنا، وطفت أنانيتنا.. وكلما أمّلنا في الدنيا، واطمأننا إلى الفانيات، وظننا أننا سنخلد أبداً.. كلما ظلمنا وتجبرنا، وغفلنا ونسينا، وجحدنا وكفرنا.. كلما كان منا ذلك، أو بعض من ذلك؛ وقفت لنا بالمرصاد، في لطفٍ تذكّرين وتهديدٍ:

"يا هذا، انظر إليّ، وتملّ جمالي؛ فهل تدّعي أنك بلغت، وهل تقدر أن تنافسني فيه.

ثم انظر إلى قصر عمري، وإلى هرولة أيامي وجهة الاتّحاء... تذكّر واعتبر، واعمل واجاهد، ثم اصبر وثابر.. وبهذا أكون لك دليلاً، لتكون أنت أواها منيباً، فتتخذني لأجل ذلك خليلاً... تبدأ معي ساعات عمرك، لتختتم بجواري ثمالة أنفاسك.

وهنالک، في الجنان، سنلتقي، بإذن الله سنلتقي.. حينها، سترى أنني خالدة بجمالي وبهائي؛ رشيقة القدّ، حوراء نجلاء... حينها، ستعلم علم اليقين، أنك خالد بقربك من الواهب الكريم، ذي الجلال الحليم... فكلانا يومها، في المقام والحسن سواء، يا جميل".

ألا ما أروعك يا زهرة "اللاله"... ليت القلوب القحطة تدرك وتستدرك؛ فتناجيك كلّ فجر، وتناغيك كلّ غروب... مثلي تماماً؛ فهل أنت تسمعين، وهل أنت تدركين؟!

سلاماً، يا حبيبتي... إلى يوم الدين!

في طريق الهجرة^(٩)

في طريق الهجرة يولد الرشد، وتُدفن السفاهة، فينشر الإسلام عبيره...
في طريق الهجرة يلين القلب، ويسمو العقل، فتشط الجوارح من عقالها...
شاء الله تعالى أن أتلو في طريق الهجرة سورتي الرعد وإبراهيم، وأن
أتوقف طويلاً عند دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي
بُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).
كل حاج وكل معتمر إلى يوم القيامة، هو من ذرية إبراهيم عليه السلام، وهو
في وادٍ غير ذي زرع... إذن هو في حاجة إلى مسبب الأسباب، وفي
احتياج إلى الصلاة والضراعة لرب الأرباب..

الجميع ثمرة ونفحة من دعاء إبراهيم عليه السلام، والكل استجابة لندائه
وأذانه... فنحن اليوم بإذن الله تعالى كذلك، ونرجو أن ننال أجر ذلك.

أرسلت خاطري يستبق الخطو، ويلاحق الزمن، ويزودني بالأخبار
من سالف الأزمان... وبخاصة يوم خطت الرجل الكريمة للنبي الكريم
محمد صلى الله عليه وسلم هذه المسافات: أمامه أمل ورجاء لا حدَّ لهما، ووراءه مشركون
متنطعون يلاحقونه بسيوفهم وأحقادهم، علَّهم يظفرون به ويطفنون نوره
إلى أبد الآبدين... ساعتها نزل مما نزل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

^(٩) طريق الهجرة، بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، عمرة شعبان ١٤٣١ هـ.

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٤٠﴾.
فنجأ الصالحان، وظهرت كلمة الدين، ثم نجت على إثرهما البشرية قاطبة
إلى يوم الدين.

وبعد بضع من السنين، عاد ﷺ إلى مسقط الرأس، وآب ﷺ إلى مثابة
الناس مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، لكنَّ حماقات الكفار ورعوناتهم منعتهم الوصول،
ووقفت حاجزاً جلفاً في طريقه، فكان صلح الحديبية وهو يومٌ للمسلمين
مشهود، وفتح للنبي ومن معه من المؤمنين معهود، يكفيه فخراً أن نزل
فيه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١).

ثم جاء يوم الفتح المبين؛ فتح مَكَّةَ وانتشار نور الإسلام في الآفاق
جميعها.. يومها هَلَّتِ الملائكة واستبشر الثقلان، وفرحت السماوات
والأرضون.. وها نحن اليوم نتفياً ظلال هذا الخير العميم إلى يوم النشور،
ونشهد ارتفاع راية الإسلام واضمحلال ملَّة الأصنام: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١).

ثم بعد حَجَّةِ الوداع، عاد ﷺ من هذه الطريق؛ طريقِ الهجرة... ولكنَّه
عاد هذه المرَّة لِيَلْقَى الحبيب... يلقاه بقلبٍ موقنٍ في رحمته، ملتحاح
لجواره وحسنٍ مقامه، وكان المقصد أن يفصل الحكيم العليم بين "الربِّ
الذي يُعبد" و"الرسولِ البشر الذي هو عبد لا يُعبد"، وأن يصدق فيه ﷺ:
"من كان يعبد محمَّداً، فَإِنَّ محمَّداً قد مات؛ ومن كان يعبد الله، فَإِنَّ الله
حي لا يموت".

ويموت المصطفى، ويولد على إثره الملايير من البشر من كلِّ جنس
ولغة ولون... كلُّهم أهلاً وسهلاً في ضيافة الرسول الكريم ﷺ.. لا يَرُدُّ
أحدًا ولا يغضُّ الطرف عن أحدٍ... كلُّهم من أُمَّته وكلُّهم محلُّ عنايته وهو

يدعو: "يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي!".

لا تقصُرْ شفاعته وخيره ﷺ على مذهب دون مذهب، ولا على جنس دون جنس... وها اليومُ الهنودُ والصينيون، والترك والعرب، والسود والبيض... وجميع العالمين بلا استثناء... ها هم واقفون وراء إمامهم وأسوتهم وشفيعهم، قد يخطئون التقدير والعمل، ولكنهم لا يخطئون داعي الحب والشوق والأمل، إلا قليلاً.

في طريق الهجرة يحلو الدعاء، ويجمل النداء، ويعلو صوت الأرض نحو السماء.

في طريق الهجرة نبتهل... ونُعيد:

"اللهم اجعل كلَّ وادٍ، وكلَّ سهل، وكلَّ جبل، وكلَّ حجر، وكلَّ شجر، وكلَّ دابة، وكلَّ أفق، وكلَّ نسمة، وكلَّ شعاع، وكلَّ ذرَّة... مما نعلم ومما لا نعلم... كلَّ شيءٍ شهد هجرة المصطفى ﷺ، وحنَّ له، وسبَّح على أثره وهلل... كلَّ شيءٍ مما لحقه هذا الخير وهذا الأثر إلى يوم الدين...

اللهم اجعل كلَّ شيءٍ من هذا أو ذاك سبباً لمرضاتك عنا، ورضاكَ عن أمَّتنا، واجعلني اللهم شريكاً لكل ذلك في ذكره، وفي تسيحه، وفي تهليله، وفي تحميده، وفي تكبيره... إنك تعلم ولا أعلم، أنت علام الغيوب... اللهم أسألك بحق ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) أن تجيب دعائي ولا تردني خائباً.

اللهم، باسم مقام ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)، أدعوك يا رَبِّ، أن تحشرني مع مَنْ اخترتَ ومع من اصطفت.. فأنا عبدٌ من عبادك الذين خلقتَ، وللإسلام هديت..

اللهم إنَّ من حُرْم الاختيار شقا في غياهب الاحتيال، ومن وُهب

الاختيار نجا من فتنة الاختبار.

اللهم، هذه مرتبة الصمت والسكوت، ومرحلة زوال الأحرف عن
الألسن والأفكار والأذهان، لتترك المجال والساحة خالصة للذكر الجبري
الدائم...

اللهم اقرن بين ذكرى الجبري وذكرى الاختياري، واجعل ذكرى
دائمًا دوام النور والهواء والماء، واجعله متصلًا اتصال الأحوال والأزمان
والأمكن، ولا تكتب لي يا رحيم ثانية واحدة، ولا قدر مفحص قطاة...
بلا ذكر ولا فكر، ولا علم ولا عمل... يا أحكم الحاكمين."

في طريق الهجرة يحلو النداء الأزلي:

"لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... إن الحمد، والنعمة،
لك والملك... لا شريك لك..."

ردد معي أخي، ورددي أختي، بصوت عال هذا النداء، وادع الله أن
يرزقك حجات وعمرات، ورضا وقبولاً، ومقاماً محموداً... إنه سميع
قريب مجيب الدعاء.



ويعود العيد^(١٠)

ويعود العيد، ليلقي بظلاله على العالم أجمع، مسلميه وكافره، مؤمنه وفاجره، إنسيه وجنيه... ولينشر شذاه وعبيره عبر الأثير، فيحتفي من اهتدى، ويحار من أعرض عن طريق الهدى.

ويعود العيد، وقد سقطت عروش ودكت جيوش، وعز قوم وذلل آخرون، وفقرت عوالم وفُتنت أخرى، ومات بعض منّا وأهلت عيون بعض... الشمس لا تزال هي ذات الشمس، والقمر هو نفس القمر؛ ولا شيء تغير إلا عند بني البشر.

ويعود العيد، ومن الناس من آمن وعمل صالحاً، ورضي بما قدر الله له واجتهد فيما قدر، وأخلص النية لوجهه الكريم وصبر، وجد في المسير وما ضجر... ومنهم -والأسف ملء الجوانح- من أعرض واستكبر، وجاهر بالمعصية فلم يستحي من خالق ولا مخلوق، ولم تنفعه العبر، ولم يشنه عن غيه مرض ولا موت ولا فتن.

ويعود العيد، لنقول للجميع: "عيدكم مبارك، وكلُّ عام وأنتم والأمة الإسلامية، والبشرية جمعاء، بخير"؛ ذلك أن العيد يدفعنا إلى قصد الخير وفعله، ويرفعنا بالروح الإيجابية وإحسان الظن بأهله، ويعلمنا أن نكره الكره، ونبغض البغضاء، ونفتح خندقا بيننا وبين الشحناء والرعناء.

ويعود العيد، لينحني الولد أمام أمه يرسم قبلة على جبينها البلوري، ويلقي التحية على والده يقبل كلتا يديه الماسيتين، وبأوي الزوج إلى سربه

^(١٠) عيد الأضحى المبارك، إسطنبول، ١٤٣٢هـ / ٦ نوفمبر ٢٠١١م.

بعد طول غياب، ويسافر الحبيب إلى حبيبه بأعلى التضحيات والأثمان...
 إنه عنوان الألفة بين القلوب، ودليل الرحمة المهداة من ربِّ القلوب.
 ويعود العيد، ثم يُطَوَّى مِنَ الأفق كُلُّ شيءٍ، في أقرب من لمح
 البصر: التعبُ والإنفاق، اللباسُ واللحم، السرورُ والتواصل، الابتسامةُ
 والكلمة، البشر والأصاحي... كُلُّ شيءٍ يختفي، فلا يبقى سوى "الأجر"،
 و"المثوبة"، و"القبول" عند الكريم المَنَّان القائل: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا
 دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج: ٣٧)، والقائل بيانا لهذا: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦).

ويعود العيد، وما لنا وللممتني، فحال عيدنا هنا كحاله هنالك، والعيد
 عيدٌ في مكة أو في دار السلام، في "مالبورن" أو في "ساندياغو"، في
 الجزائر أو في مدينة الإسلام... إذ التكبير تكبيرٌ، والمساجد مساجد،
 والمآذن مآذن، والصلوات صلوات، والحبور حبور... كُلُّ ذلك عند الله
 سواء، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

نعم، بميزان الأرض تختلف العوالم والمعايير والاعتبارات، لكن
 بميزان السماء لا فرق ولا فضل، إلا بمقدار القبول والرضا؛ فالمتقي هنا
 مَرْضِيٌّ، والفاجر مطرود؛ وهنالك لا يشفع شافعٍ لعاصٍ، ولا يجحف
 مجحف حقَّ مُطيع... فهل نحن واعون، معتبرون، عالمون، عاملون؟!.

ويعود العيد، وقد عاد... وسعود... وشريط البشر يمرُّ كطابور طويل،
 يشرع فيه المولود وهو الأخير في الصفِّ، ثم -بعد أمدٍ- يختفي إذا جاء
 أجله وحلَّ يومه، بموت عاجل أو آجل... كيفما كان السبب، وأينما كان
 المكان، وحيثما حلَّ الزمان.

طابور طويل.. طويل... طويل... غير أنَّ بعضًا من الناس، سيكونون

يومها سُعداء بالقرب من الخلاق ومن رحمته؛ فلا يشعرون إلا وقد عُمرُوا
بريحان الجنان، وهم يتمرغون في سفوحها، يطعمون أشهى ثمراتها،
ويسمرون مع أطيب خلانها.

أما الآخرون.... آه من الآخرين... فحالهم أبلغ من كلماتي، ومآلهم
أسوأ من أن تدركه أوصافي...

ويعود العيد، ونحن -فرادى، ومن معهدنا، ومن أكاديميتنا، ومن
أوطاننا، ومن عالمنا- نحیی كل أخ، وصديق، ورفیق، وعالم، وعامل،
ومخلص، وصادق، ومجتهد، ومجاهد، وصابر، ومثابر... في أي مصر
كان من العالم، وفي أي عصر وجد في الوجود... ونقول للجميع: "جمعنا
الله في رحمته، وأظللنا بظله... بعد أن يُرينا نصرًا ونصرة للمؤمنين، وفجرًا
وميلادًا جديدًا للمتقين، ويومًا ومصيرًا حقيقًا لديننا الحبيب الإسلام"...

ويومها نقول جميعًا، ونردّد:

عيدكم مبارك... مبارك... مبارك.



ابتسامة الملائكة... همسة في أذن أختي المضيئة^(١١)

على متن طائرة، عائداً من إسطنبول، وقد انتهت ورشة العمل الدولية، التي عقدناها تحت مظلة مجلة "حراء"، كتبت هذه الخاطرة على الورق، ولم أشأ أن أخرج جهاز الكمبيوتر المحمول، الذي نافس هذه المرة دفثري الورقي في خطِّ مذكرات الرحلة؛ وكانت العصاره ما يلي:

من عجب أن مقعدي كان رقم "23j". أثناء وقت الإقلاع، كان أمامي مباشرة مقعد المضيئة، تجلس عليه كما هو المعمول به دائماً؛ أمّا أنا فكان المصحف على يدي، أتلو منه سورة الأنبياء، أنفكر في معانيها، وأتدبر في أعماقها، وأحمي بذات المصحف عيني مما حرّم الله؛ وقد دمت تلكم العينان، إذ رأيت فيما يرى الرائي، وتخيّلت فيما يتخيّل الحالم، ملائكة تبسم مما أنا عليه الآن:

فمن جهة تجلس امرأة سافرة، ساقاها مكشوفتان، ومن جهة يجلس عبدٌ لله يتلو كتاب الله، لا يدري هل تقبل الله منه أم لم يتقبل! وهذا المسكين لم يجد سبيلاً لغضّ البصر، ولا وسيلة لملازمة الصبر، إلا في القرآن الكريم معنى وقلباً وإيماناً، وفي المصحف الشريف شكلاً وحساً وسبباً.

ولقد -والله- تذكّرت موقفاً عجبياً، لنبي الله عظيم هو سليمان عليه السلام، يوم جاءته بلقيس ملكة سبأ، فقبل لها في حضرته: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ (النمل: ٤٤)؛ وتبسم ضاحكاً من

^(١١) على متن طائرة من الخطوط الجوية التركية، صائفة ٢٠١١.

فعلها، وقال: ﴿إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤)، وكان ذلك بفضل الله، سبباً لإدراكها ضَعْفَها، ولاعترافها بجهلها.. ولما كانت المرأة الكريمة يقظة القلب، ذكية الفكر، قالت على إثر ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤).

وكنْتُ أقول في نفسي وما أنا بسليمان، وما هي ببليقيس، الأحشاء مني تنفطر من قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ معرضون﴾ (الأنبياء: ١)، ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٣)، كنت أقول: "مَن يدرى، لعلَّ تلاوتي لكتاب الله تحرك بعضاً من كوامن الخيرات في قلب هذه المضيفة، ويكون لها أثراً وأيّ أثر، فينفعها الله بها، وأنال بذلك أجراً مضاعفاً، وما ذلك على الله بعزيز".

المهمُّ أنني لا أملك هذه اللحظة إلا أمرين اثنين لا ثالث لهما: الإشفاق عليها، والدعاء لها.

أمَّا الإشفاق؛ فلأنَّها صارت -بفعل المدنيَّة المغلوطة- شيئاً من الأشياء، وصار جسدها بضاعةً في سوق البضائع؛ ولذا فهي لا تملك أن تعمل مضيفة في وكالة للطيران، وتمتنع من عرض مفاتها... ألا ما أقسى "المادية الحلولية الواحدية الصارمة"؛ إنَّ هذه اليتيمة ضحيةً من ضحاياها. وأمَّا الدعاء لها لا عليها؛ فلأنَّ القلوب بيد مقلب القلوب، الرحيم بعباده، الغيور على خلقه وعبيده وإمائه؛ وقلبُ هذه السيدة بين إصبعين من أصابعه سبحانه، فهو القادر على أن يبعث لها سبباً تؤوب به إلى بارئها، وتتحصَّن به في بيتها، أو معملها، أو متجرها، أو مكتبها... عاملةً، نعم، لكن محصَّنة طاهرة عفيفة.

لكن، هنيهة، لماذا أنت تحار من هذه، ولا تغار من العشرات من بنات

وطنك المسلم أصلاً، ممن مُسخن كَلِيَّة، وارتضين العُريَ مذهبا، فبعن بعضاً من قيمهنّ ومبادئهنّ بل وعاداتهنّ بأبخس الأثمان، وصرن بذلك معذّباتٍ معذّبات. ولمثل هؤلاء النسوة، كذلك، أكنّ الكثير من الشفقة والرحمة، وألهج للحكيم الجليل، أن يهديهنّ سواء السبيل.

مهلاً، من المفارقات أن إحداهنّ، وهي سافرة، تحمل بين يديها كتاب "حصن المسلم من الذكر والدعاء"، وتقرأ منه، فهي بذلك داعية معي، لعلّ الله ينظر إلى قلبها، ويغفر لها ولي، ويغفر لجميع المذنبين والمستغفرين على متن الطائفة.

ولقد -والله- حمدتُ الله على نعمة الصبر، وشكرته على نعمة إجهاد النفس في غضّ البصر، ولعلّ المناسبة بين "الصبر" و"البصر" -في تقديم حزفٍ وتأخير آخر- هي أن من أشدّ أنواع الصبر وعورة، ومن أكثرها ثقلًا على العبد، الصبرُ عن إطلاق البصر، والصبر في غضّ البصر، ومن يدري؟! وحمدتُ الله، -ثانية- لعفاف وحجاب وحشمة زوجاتنا، فهنّ بذلك قد وقفن طويلاً شامخاً أمام محاولات المسخ، وتحدّين كلّ الداعين إلى ابتذال المرأة، وإلى فتح الأبواب والنوافذ على مصارعها، حتى يتنفس النساء روح العصر.

إن هؤلاء، لا يعون أنّ ذلك أحرى به أن يكون "عصرًا للروح" لا "روحًا للعصر"، وأولى به أن يسمّى "اغتيالاً للضمير"، و"تبليدًا للوجدان"، و"زرعاً للقلق"، و"حصاراً للشقاء والفتن"... إنّ هذا الانفتاح المزعوم إشارة للوقوع في الهاوية، ودليل على فسادٍ في الأرض كبير، لا يعلم مداه إلا الله.

أختي السافرة، شفقةً ورحمةً، دعاءً وتضرّعاً، أرجوك أن تتفكري،

وتتذكرني، وتعلمي عقلك وقلبك وضميرك، وتنظري فيما حولك، وفيمن حولك، عيوناً للذئاب ناهشة من عرضك، ورؤوساً للأفاعي رامية لدغك..
أختي الكريمة، لا شك أن فيك الخير الكثير، وعلى إثرك برّ كثير، تُوبي إلى الله، وثقي أن رحمته واسعة، ومغفرته قريبة.

أختي المتحجّبة، لا تعتقدي -بما أنت فيه- أنك في مأمن، فلا تزال الشياطين تتربّص بك الدوائر، ولا يزال من في قلبه مرض يستدرجك بكلّ الوسائل، ويعمل على مسخك بما أوتي من قوّة الإعلام، والقانون، والتخطيط، والسياسة، والمال... فكوني لهم صخرة ترتطم عليها إرادتهم وبرامجهم، فتفتّت شذر مذر.. وكوني -أختي- لزوجك حصناً منيعاً؛ فأنت -بما أنت عليه- حجاب عن الغريب، وحجاب للحبيب؛ وأنت بذلك تجاهدين الجهاد الأكبر، بل تقودين بجدارة إحدى أعنى حروب العصر.

أختي، أخي، سويا لنقرأ قوله تعالى، من ذات سورة الأنبياء، على لسان نبي الله ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)؛ ولا ريب أن تمام الآية، لو صدّقنا وأخلصنا، سيكون جزاء لنا وهديّة: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨).

ولعلّي لن أخطئ التقدير إذا اخترت لك -أختي العزيزة- قصيدة من روائع الشعر لأحد أبلغ الشعراء -هو غازي القصيبي- عنوانها: "حواء العظيمة"، كتبها قبل ثلاثين عاماً، وقال فيها، لا فضّ فوه:
أنت السعادة والكآبه،
والوجد حبك والصبابه..

أنت الحياة تفيض بالخصب
المعطر كالسحابه..
منك الوجود يُعبُّ
فرحتَه ويستدني شبابه..
وعلى عيونك تنثر
الأحلام أنجمها المذابه..
وعلى شفاهك يكشف الفجر
الجميل لنا نقابه..

* * *

ضلُّ الألى حسَبوكِ
جسمًا لا يملُون اغتصابه..
وضجيعةً مسلوبةً الإحساس
طيعة الإجابة..
وذبيحة نُحرِت ليأتي
الذئب منها ما استطابه..
وبضاعةً في السوق باعتها
العصابة للعصابة..
تبقيْن أنتِ فقههيهي
مما يدور ببال غابه..
تبقيْن أنتِ ويذهبون إذا
الصباح جلا ضبابه..
تبقيْن أنتِ ويذهبون

ذبابَةٌ تتلو ذبابه...

جميلٌ أن تحفظي أختي الكريمة هذه الأبيات، بعد حفظ تلكم الآيات؛
لا هجّة للعلّيّ القدير أن يغفر الله لي، ولك، ولنا، ولهم، ولهنّ.. جميعاً...
إنّه هو الغفور الرحيم.



إلى التي...^(١٢)

- إلى التي أذابت عصارة عمرها في تربيتي، لأحیی سعيدًا مكرمًا.
- إلى التي من قبس النبوة استقت، فكان حالها يردد دومًا: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الأنعام: ٩٠).
- إلى التي في يقين وثبات، أعلنت شعارها الخالد: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (يونس: ٧٢).
- إلى امرأة أعطت كل ما عندها، لا ليقول الناس، لكن ليرضى عنها مالك الناس.
- إلى امرأة دأب الناس على نسيانها والتنكر لفضلها، كأنها خلقت للظل، إلى يوم يُظْلَمُ الله بظلمه الأبدي.
- إلى امرأة بخس الناس كل أشياءها، وبجرة قلم لَطَّخُوا مُحِيَّاهَا -ظلمًا وجورًا- بعبارة: "بلا عمل"^(١٣).
- إلى أمة لله، لم تأبه لهذه السخافات، فراحت تناضل وتجاهد وتهاجر... رغم كل العقبات.
- إلى أمة لله، لم أقدرها حق قدرها، حتى غادرت المكان، وتركتني يتيمًا رغم كبر سني.
- إلى أمة لله، ودّعني إلى الأبد، ولمّا يكتمل المشوار، فخلّفت بين أحشائي فلذات زغب، يصرخون بصوت أجشّ حان: أمي، أمي...
• إليك أمي.. يا أعذب لفظ عرفته، بعد ذكر ربي، والصلاة على نبيي.

^(١٢) الجزائر، شهر رمضان المبارك ١٤٣٠ هـ.

^(١٣) يكتب في الوثائق الرسمية عموماً في وصف مهنة المرأة ربة البيت عبارة: "بلا عمل"!

- إليك زوجي.. يا أعظم إنسان، رغم كيد الأعادي، وشح الأيادي...
 - إليك أختي.. إليك بنيتي.. كيفما كان اسمك، عائشة، نانة، بابة، لالة، نصيرة، سليمة، فتيحة أو حليلة... لا يهم. المهم أنك ممن يصدق فيه وصف الجليل في النساء الطاهرات: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التَّحْرِيم: ٥).
- مهما كان اسمك، أمي، زوجي، أختي، ابنتي... فَإِنَّ سَيِّدِي وَحَبِيبِي وَقَرَّةَ عَيْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، قد أوصاني بك: فقال: «استوصوا بالنساء خيراً» (رواه البخاري).

إليك يا من تسمعينني أو تقرئين ما أكتب..
أهدي -باليابة عن ابنك، وزوجك، وأخيك، وأبيك- هدية، وتحيةً وفاء وإجلال..

أهدي إليك دعاء صادقاً من القلب:
"اللهم احفظ نساءنا، وأبعد عنهن قالة السوء، وارض عنهن، وارزقهن الجنة بجوار مريم وخديجة وفاطمة... وبجوار سيد الخلق محمد ﷺ... رضي الله عنهم أجمعين... آمين".

إليكم جميعاً، رجالاً ونساء -ولا غرو فالنساء شقائق الرجال- أتبرع بهذه الكلمات، في هذه النفحة الرمضانية، سائلاً من المولى القبول.



بخ بخ، هي ذي الجنة تلوح في الأفق! (١٤)

طرقْتُ بابَه، ففتح لي بلا تردّد.

ولجْتُ رحابه، فاستقبلني بوجه طلق، وكلام طيب، وروح فياض.

قال لي: مرحبًا بك مرّة أخرى، ها قد عدتَ لزيارتي. لكن، أين صديقك فلان، وجارك فلان، وتربك فلان؟! لا أراهم..

قلت: كلُّهم قد لقي حتفه، ووافته المنية، وعادوا خبرًا بعد أثر، وذكرًا بعد عيان.

قال: رحمهم الله جميعًا، وهداك وهدى العقلاء الأحياء أمثالك أن يتيقنوا أنهم ليسوا للقاعدة ولا لسنن الكون استثناءً.

قلت: آمين.

قال، وهو يصوّب عينيه إلى عينيّ: ضيفي العزيز، لك أن تصول وتجول بين جنات قصري، كما تشاء؛ ومن واجبك أن تزوره غرفة غرفة، فتنعم بالخيرات، وتطعم الثمرات، وتنشق الزهرات، وتنال النفحات... بلا قيد ولا شرط.

قلت: ما هذا الكرم؟! لم يسبق لي يوما أن دخلتُ بيتَ أحد، ففتح لي جميع أركان بيته، وألزمَني بالتمتع بجميع الموجودات فيه. بل، أنا -كذلك- لم أفعل ذلك يومًا، مع أيّ ضيف من ضيوفِي.

قال، مبتسمًا والنور يرشح من محيَّاه: هذا طبعي، وهذه صفتي، وهذه خلقتي، ولهذا سُخِّرْتُ؛ فأنا الكريم، أفرح وأسر، وأجذل وأبهج، لجميع

(١٤) الجزائر، ١ أغسطس ٢٠١١م.

من يزورني، ولا أسأل عن شأنه وشأوه، ولا عن غناه وفقره، ولا عن صحته ومرضه، ولا عن عزه بين قومه أو ذله... فكلُّ من لاذ بحصني كان فيه أهلاً وسهلاً، واستوى مع غيره من الضيوف في الحقوق والواجبات والمكرّمات.

قلت: وهذه عجيبة أخرى! فمن عادتنا، نحن البشر، أن نفرّق بين ضيوفنا، فليس الرئيس والوزير والغني وصاحب الفضل، كالعاميّ والبسيط والفقير ومن لا فضل له علينا!.

قال: حكمكم خلاف حكمي، فاعتبروا.

قلت: وماذا عمّن يعمد إلى إفساد جمالك، فيجرح زخارف بيتك، ويكسر الزجاج، ويلقي بالقمامات على الفرش الأنيقة والسجاد الوثير؟
قال: حتى هؤلاء أستقبلهم وأحتضنهم، على أمل أن يتوبوا ويؤوبوا إلى رشدهم، فإن لم يكن ذلك عند أوّل غرفة من غرفتي، فعند آخرها، وإن لم يكن عند هذه الزيارة، ففي التي تليها إذا عادوا... ومن يدري؟

قلت: وما بال من يمرّون أمام بابك، فيديرون ظهورهم، وهم يسمعون حذمك، مبثوئين في الشوارع، ينادون الناس إلى قصرك؛ ثم هم يجعلون أصابعهم في آذانهم، كي لا يسمعوا صوت المضيف والخدم؛ ثم هم بعد ذلك، يدفنون أموالاً طائلة في كراء بيوت من القصدير، وينفقون ما لديهم للسكن في خيم وسخة مهترئة، كل ما فيها تمجّد القلوب والعيون والأسماع والأبصار؟

قال: هؤلاء -من كرمي- أبكيهم؛ وأدعو الله -إذ هم لم يشاءوا سماع صوتي- أن يرشدهم؛ حتى يميّزوا بين الخير والشر، بين السعادة والشقاء، بين الدنيا والعقبى.

قلت: وماذا عني أنا؟ هل يا ترى أحسنتُ آداب الضيافة في الزيارات الخوالي؟ وهل كنت عند حسن ظنك بي؟

قال: ليس تقدير ذلك بيدي... إنه بيدك أنت، وهو قبل ذلك في دهاليز قلبك وضميرك وعقلك؛ أنت وحدك تعرف ذلك، ولا أحد سواك... ومن حكمة أن الله تعالى، العليم بخفايا النفوس، أوكل إليك ملائكة كرامًا كاتبين، يسجلون ما يفور داخلك، وما يثور على جوارحك، صفتهم الأولى أنهم ثقات أمناء كرام.

قلت مهلاً: فهمتُ؛ وبم تنصحنِي إذن؟

قال:

- اصدُق نفسك ولا تكذبها.. هذه واحدة.
- جاهد نفسك، وصابر واصطبر.. وهذه الثانية.
- واعمل على أن تكون زيارتك هذه أفضل من التي خلت.. وهذه الثالثة.
- أمّا الرابعة؛ فهي أن لا تنسى أنك مهما هنتَ بين جنباتي، ستخرج يوماً ما من قصري، وأنت قد لا تعود أبداً الأمد، فذلك أجلك، وأن هنالك قصرًا لو قُست كرمي إلى كرمه، لكان بمثابة الصفر إلى اللانهاية، وبمثابة اللاشيء إلى كل شيء؛ إنه رحاب الله، ورضاه، وجنته... فهذا القصر لو حظيت به -ويا سعد من تكحلت عينه به- فلن تخرج منه أبداً، وهذه هي المنعة العظمى.. وإن حُرمت -لا قدر الله- فلن تجد ريحه أبداً، وهذه هي المحنة الكبرى.

قلت: إذن، سأنتظر بشوق تلك الساعة، وأنتظر بأمل ذاك الحظ العظيم.
قال: -والصرامة تجل جبينه- مهلاً، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ (فصلت: ٣٥) ابتداء، ثم ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥) تبعاً.. ولذا أنصحك أن لا تنتظر، بل اعمل واجتهد، فهذا السبيل الوحيد إلى ذلك المقام المحمود.. ألم يقل العزيز الجليل لنيّه الكريم ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩)؟!

قلت: نعم، هي هكذا في كتابنا الكريم.

قال: لكن، لا تفصلوا الآية عن سياقها، وإنما هذه نتيجة لأمر هو: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ (الإسراء: ٧٩)، هذا عنوان الطاعة، ودليل العبادة، وصورة العمل، ومنهج الصدق؛ هي قاعدة ذهبية واحدة: "رحمة الله واسعة، ووعد صادق، ومغفرته شاملة؛ لكن هي كذلك ﴿لَمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢)".

* * *

التفُّ به الصمت والوجوم، فقلتُ في نفسي لنفسي:

هو موسم الحصاد فاحصدي، هو موسم الجهاد فجاهدي، هو موسم الاجتهاد فاجتهد، هو موسم الريح فاربحي.. يا نفسُ لا تكسلي، ولا تغفلي، ولا تظلمي، ولا تخنسي...

وفجأة، تخيلت رسول الرحمة ﷺ يقول لي ما قاله لعمر بن الخطاب بن الحمام عليه شآبيب الرحمة: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صباراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

ورددتُ، مع الصحابي الجليل مقالته الجليلة، وفي يده تمرات يأكلهن: "بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.. ثم

قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل".
وما الفرق بيني وبين عمير عليه السلام، إلاَّ أنَّ أعدائي اليوم شتى، وأنواع،
وصور، وأشكال... كلُّهم يصوِّبون رماحهم وجهتي، ليُرْدُوني قتيلاً:
الإعلام الفاسد، والتعليم الجاهل، والسياسة الفاجرة، والاقتصاد المرابي،
وأعداء الإسلام الذين أخرجونا من ديارنا، وقتلونا، وظاهروا على قتالنا...
وغير ذلك كثير.

والفرق الآخر بيني وبينه، هو أنه صحابيٌّ، تربَّى وترعرع ونشأ بين
أحضان أعظم معلِّم عليه السلام، وأكمل خلق الله، وأصفاهم؛ أمّا أنا، فطالب علم،
لا أزال أدبُ ديبياً، وأبحث عن المعنى... في عالم غاب فيه المعنى،
ومات فيه المعلِّم، وتمرَّد فيه المتعلِّم؛ إلاَّ ما رحم ربي.
لأجل كل ذلك سأعمل جاهداً، وأقاتل النفس الجموح حتى تلين،
وما التوفيق والنصرة إلاَّ من عند الله، فالحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة
للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين.

* * *

سلاماً يا سيدي، يا رمضان، يا أبرَّ من برٍّ، ويا أكرم من أكرم.



حين يعمل الغافلون، ويكسل الراهبون^(١٥)

هما عالمان متكاملان: عالم الغايات والمِن، وعالم الأسباب والسنن؛ وعندما ينقسم عالم عن عالم يدبُّ الخراب في الوجود، وتشهد البشرية أسوأ أيامها وأحلك ليلاتها، فيأتيها الشؤم متبختراً، وتنكسر شوكتها عند باب الروح والطمأنينة، أو على ركن العمران والتمكين.

فحين يعمل الغافلون، تنمو مظاهر الحياة، وتعمُر أسواق المادّة، وتزيّن الأرض بالمنجزات المدنية: من عمارات وناطحات، ومن آلات وتقنيات، ومن مصانع و"مُولات"^(١٦)... ذلك أن هؤلاء الغافلين العاملين اتخذوا الأسباب، وحرثوا الدنيا بالأفعال، وتفنّنوا، واجتهدوا... والقاعدة التي لا تخطئ أبداً في شأنهم، هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ (الشورى: ٢٠)؛ فلم يقل جلّ من قائل: "لا نُؤْتِه منها"، وذلك مصداقاً لقوله في آية أخرى: ﴿كُلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

أمّا حين يكسل الراهبون، ويتعلّقون بأستار الكعبة، ويلازمون مساجدهم، ويطيّلون الركوع والسجود، ويغرقون في تلاوة القرآن بلا تمثّل لأوامره، ويمارسون الذكر اللساني المتواصل... دون أن يعملوا ويعلموا، ويجاهدوا ويجتهدوا، وبينوا ويعمّروا، ويتدافعوا ويدافعوا... فإنّ دنياهم تتحول إلى عوالم روحانية لا حضارة فيها، وتؤول أمورهم إلى

^(١٥) الجزائر، ١٧ مايو ٢٠١٠م.

^(١٦) المساحات التجارية الكبرى، وقد تحولت على ضوء النموذج المادي إلى معابد، يقصدها العباد كلّ يوم أحد، أو يوم جمعة، لا للتسوّق فقط، لكن لإشباع الفراغ الكوني الذي ينخر في الأعماق.

أيدي أعدائهم، ويغمر الفقر أوصالهم، ثم يقصم الذل ظهورهم وظهور أقوامهم وأهلهم.

وما أروع مقولة النابغة الأديب، البشير الإبراهيمي: "أيها المسلمون: عيدكم مبارك إذا أردتم، سعيد إذا استعددتهم، لا تظنوا أن الدعاء وحده يردُّ الاعتداء، إنَّ مادة "دعا-يدعو" لا تنسخ مادة "عدا-يعدو"، وإنما ينسخها "أعد-يعدُّ" و"استعد-يستعدُّ". فأعدوا واستعدوا، تزدهر أعيادكم، وتظهر أمجادكم".

بين جلد الفاجر وعجز الثقة

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ورضي عنه، فهو بنور الله يصر، وهو الذي تألم من كلا الحالين، بل إنه استعاذ من اجتماع النقيضين، فدعا الله قائلاً: "اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر، ومن عجز الثقة"، ذلك أنه ﷺ لم يكن مجرد مؤسس لأركان أعظم دولة في العالم، ولا مجرد متفرغ للنسك والتعب؛ وإنما كان "عابداً عاملاً، وعاملاً عابداً"... يستمطر الرحمات وعناية السماء، باتباعه الأسباب ظاهرها وباطنها، وبإدراكه الغايات قريبا وبعيدا؛ فصدق فيه أنه "أعظم شخصية عرفها التاريخ، بعد شخصية النبي والمرسلين".

من للأمم الإسلامية اليوم من رجل في قامة عمر رضي الله عنه؟

يقول شاعر، واصفاً حال انقصاص المسلمين، ومستوحياً المعنى من الجامعة العمرية:

تبلد في الناس حسن الكفاح ومالوا لعيش وكسب رتيب
يكاد يززعزع من همّتي سُدور الأُميين، وعزم المُريب

المفارقة الكبرى

إنَّ قلبي ليتفطَّر، وإنَّ عقلي ليتفجَّر، وأنا أعين -في أسفاري، وحين مطالعاتي- نشاطَ أهلِ الضعة والفساد، واجتهاد أهل الشرك والإلحاد، وحرصهم على العمل، وصبرهم في التحصيل، وتفانيهم في تشييد أسس النظام والحياة، ووصلهم الليلَ بالنهار أمام الكتب والبحوث، وداخل المخابر والمراكز: يتعلَّمون ويعلمون، ويعملون ويتقنون، ويزرعون ويصنعون، ويُتاجرون ويغزُّون، وفي كلِّ ذلك يبدعون ويحسنون... بجِدٍّ ما بعده جدٌّ، وبتفانٍ ما وراءه تفانٍ؛ كلُّ ذلك وقلوبهم قفرة فارغة، ونفوسهم مضطربة قلقة، وعقولهم حيرانة سكرانة.

ثمَّ إنني -والأسف ملء الجوانح- أجدُّ الكثير من الراهبين من أهل الدين والإسلام، ومن المنتسبين إلى المصطفى ﷺ والقرآن... أجدُّهم في كسلٍ عن العمل، وخمول عن الأسباب، وقَلَّة في ذات اليد، وتهاونٍ في الوظيف، وبُعدٍ عن النظام... ومن ثمَّ، ونتيجة لذلك، ترى الواحد منهم عالة على العالمين، يصدق فيه قول الرحمن أنه: ﴿أَبْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ (النحل: ٧٦)... وإذا شئتُ التَّثبت في شأنهم، فما عليك سوى البحث عن علامات مازكات مآكلهم وملابسهم، ومساكنهم ومراكبهم، وأثاثهم وأجهزتهم... فستجدها -يقينًا- مصنوعة بأيدي غير متوضِّئة: صينية أو يابانية، أوروبية أو أمريكية.

خلاص العالم

لن يكون خلاص العالم من المحن والإحْن التي يَرزح اليوم تحت وطأتها، إلاَّ بارتفاع هذا الانفصام المشووم، ولن يتحقَّق ذلك إلاَّ على يد قوم ربَّانين حقيقيين، من مدرسة القرآن الكريم، ومن أتباع المصطفى الأمين ﷺ... قوم يقتفون أثر الراشدين، ويسرون على خطى الفاتحين، ويعيدون للعالم ذكرى الفاتح وصلاح الدين... والله لن يشفع لنا اليوم أنَّا نلوح بأعلام النصر كلَّما هزَّت الغرب أزمة، من مثل الأزمة المالية؛ أو اعتراه سقم، من مثل أنفلونزا الخنازير؛ ذلك أنَّ هذا النصر هو نصر للإسلام، وتصديق لما جاء به، لا ناقة للمسلمين فيه -اليوم- ولا جمل... والواجب علينا اليوم أن نقدم البدائل، وأن نهزم أعداء الله "بأيدينا"، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ (التوبة: ١٤-١٥)؛ ومن عجب، وما أبلغ كلام الله تعالى، أنَّ هذه الآية -وغيرها- لا تُقرأ مبتورة عن سياقها، ولا تُفهم حقَّ الفهم إلاَّ بسبقها ولحاقها، ففي تمامها يقول جل من قائل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٦).

النصر إذن حليفُ الجهاد والعمل، ومعيةُ الله رهينةُ التقوى والإيمان وابتغاء مرضاته، وصلاحُ الدنيا والفوزُ في الآخرة مشروطان بالرشد والرشاد، وباتباع الأسباب، مع الاعتقاد الجازم أنَّها من الله، والله، وفي الله. فهل مشاريعنا وإنجازاتنا ومدارسنا ومعاهدنا... بلغت هذا المقام العليَّ؟!

هذا هو الرهان اليوم وغداً، وإنني أرى نصر الله تعالى قاب قوسين أو أدنى، وعلى مرمى البصر، ذلك أننا أصبحنا -بحمد الله- نشهد في العالم الإسلامي الفسيح بوادر لجيل التمكين، لا تكذبها العين، ولا تخطئها الأذن.. نعم هي بوادر جاءت من غير بلادنا القريبة، لكن ليس للإسلام جغرافية ولا حمية، وإنما الإسلام صفة لمن استوفى شروطه من العالمين. هؤلاء العاملون العابدون الراشدون هم قدوتنا، وأملنا، وحزبنا... أما غيرهم من أهل الانفصام فليسوا منا، ولسنا منهم في شيء، وإنا لنسأل الله لهم الهداية، داعين بدعاء الرسول الكريم ﷺ يوم الطائف، ويوم أحد: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» (رواه البيهقي).



نحو فجر جديد ، على يد بشر^(١٧)

إذا كان الكون نظاماً كله، وإذا كانت الفوضى عارضاً زائلاً، وإذا كانت الاحتمالات مجرد وهم، فإنَّ الإنسان لا يملك إلا أن يحفر بحثاً عن "قانون النظام"، ويُجهد نفسه في فهم "سلسلة الأسباب"، ثم يصل الصباح بالليل عاملاً، لتتوَّع "النتائج بناء على تلكم الأسباب".

ومن تمام حكمة الله تعالى أنه لم يسطِّر لنا مجريات الأحداث "من الألف إلى الياء"، وإنما بيَّن لنا "القواعد" و"المنطلقات" و"الثوابت"؛ ثم أمرنا بإطلاق العنان للعقل، حتى ننفذ من أقطار السموات والأرض، إن استطعنا ذلك.

كانت الحياة، مع "الرسول الأكمل" محمد ﷺ، حياة لا تتسم بالرفاه؛ لكنها تتميز بـ"المعقولة"، فتفوق عصره على جميع العصور بتلاقي العالمين وتناغمهما: عالم القواعد والمنطلقات والثوابت، وعالم العقل والفكر والاجتهاد..

أمَّا العالم الأوَّل، فيغرس فتيله في اللامتناهي، ويمتدُّ بسبب إلى الأزل من جهة، كما يلقي بصنارته^(١٨) نحو الأبد من جهة ثانية؛ فتزول في معناه كلُّ الحواجز، بما فيها حواجز الزمان والمكان، لتترك مكانها "للقدرة المطلقة، وللتقدير الكامل، وللإرادة اللامحدودة".

^(١٧) إسطنبول، ٦ فبراير ٢٠١٢.

^(١٨) الصَّنارة: كما في لسان العرب، هي "الحديدة الدقيقة المعقَّفة التي في رأس المغزل"؛ ويقصد بها في العامة: الحديدة الصغيرة المعقَّفة التي يلقيها الصياد في البحر، ويضع فيها الطَّعم ليصطاد بها السمك.

وأما العالم الثاني، فيرتبط ابتداءً بالأسباب المباشرة، ويتعلّق "بسلسلة السبب والنتيجة"، إلى أن تنتهي إلى مسبب الأسباب، ومبتدئ الوجود، وحقيقة الحقائق؛ ولا شك أن "فهم حركية الأسباب" القريبة، والعمل وفقها، أمر شرعي، وشرط في التمكين والنماء والإبداع.

لأسباب تاريخية عدّة، على رأسها الانفصامُ البين بين "الديني والدنيوي"، بين "الفقهي والسياسي"، بين "العلمي والعسكري"؛ تراكمت جزراً منفصلاً بعضها عن بعض، في تراثنا القريب بالخصوص، وهي ولا شك غير طبيعية، وغير متلائمة مع طبيعة الفكر الإسلامي الفطري. فصرنا نسمع عن "عالم الدين" و"عالم الدنيا"، وعن "علوم مادية"، وأخرى روحية... فتنامت الثنائيات بسرعة الضوء، حتى غطت جميع مناحي حياتنا... ولا تزال.

هنا -فقط- استطاع الغرب، الذي اتقن جانبا، وأهمّل جانبا آخر، أن ينتصر علينا، نحن الذين أهملنا العالمين والجانبين معاً: عالم المادة وعالم الروح، جانب العلم وجانب الإيمان؛ ولا شك أن من يملك شيئاً خيراً من صفر اليدين.

وجاء المبشّرون -منّا- من أدنى المدينة، ليُعلنوا أن تقليدنا للغرب على علاته، كما هو، في كلّ شيء، حتى في تنكّره للمعقولية وللمعنى، كلّ ذلك سيجعلنا نلحق به، وقد تتفوّق عليه؛ فأمن الناسُ برسل جُدد، هم في الحقّ أنصاف بشر، وأرباع عقلاء، لا يُعون من الكون إلاّ جانبه المظلم؛ وهم في الأساس جانبه المظلم.

اليوم، وقد سقطت الأقانيم، وماتت الآلهة، وظهر بهتان المتنبيين، وتيقّن العالم أن كلّ ما كان علماً، هو علم وكفى، وأنه صالح للعالم

المادي، الحركي، الحضاري، لا شك في ذلك؛ أمّا ما يخصّ العالم الأعلى والأسمى، أي عالم الغايات والنهايات والمعاني، فالبشرية تقف عاجزة، وتلقي المنشقة البيضاء فوق الحلبة؛ ولقد تعدّدت مظاهر ذلك؛ ابتداءً من سقوط "العلموية"، وانتهاءً بفشل "نظرية كلّ شيء"، ولعلّ مقولة آنشتين القلقة هي عنوان ذلك: "ليتني كنت إسكافيًا قبل أن أعرف الفيزياء".

فهل سيعرف العالم حقبةً من الفوضى، أم أنه سيبقى عالم احتمالات؟ أم أنّ ثمة جوابًا حقيقًا، يختفي وراء الصمت، وينتظر الفرصة السانحة؟ لا ريب أنّ هذا الجواب، إن وجد، فسيكون على يد بشر، ولن يحتاج الناس إلى نبيٍّ جديد يحمل إليهم الصواب؛ ذلك أنّ النبوة، ومهمّة النبوة، قد اكتملتا مع نزول القرآن، مع آخر الأنبياء على الإطلاق، إلى يوم الدين. إذن، الجواب، والصواب، سيهلّ بحول الله على يد بشر... فالفوضى لا تبني الطمأنينة، ولا تريح الإنسان، ولا تجيب عن أسئلته الحائرة، ولا تملأ فراغه الكوني... ولذا، فإنها وإذ جاءت، فخرجوا أن لا تبث في الربوع -ضيقًا ثقيلًا- لمدّة طويلة؛ من هنا كانت الاحتمالات في العالم المادي ممكنة، مفيدة، نافعة؛ أمّا في العالم الأكبر، فلا معنى لها، ولا نفع، ولا استقرار.

"على يد بشر"

من يكون هؤلاء البشر المرتقبون؟ هل هم اليوم يعملون؟ وهل وعوا مهمّتهم؟ وهل ثمة حراك فكريّ سيولّد الحقيقة من "التوريبينات" التي يشعلونها؟ متى ذلك؟ وكيف ذلك؟ وما هي العوائق، حتى تزال؟ وما هي القوى الحابكة، حتى تصفرّ؟

الجواب، يكون بحول الله، على لسانٍ وبيدٍ "المجدّدين"، أصحاب

"الدهاء الجمعي"، من أمثال الأفعاني، والنورسي، والسالمي... في الأولين؛ ومن أمثال: ابن نبي، وفتح الله كولن، والمسيري... في اللاحقين؛ إذا لم نكن نحن أحفادا وأبناء لهؤلاء، وإذا لم نحمل المشعل لنريحهم ولنحقق آمالهم فينا... وإذا لم نحاول، على الأقل... وإذا تماطلنا، ثم سافرنا إلى الأخرى بلا جهد يُذكر... فما هو الخير المأمول فينا؟! لهذا، يحترق وقود المادة الرمادية فينا، ويذهب القلب كل مذهب، ثم يغمرنا القلق الولود، ونلوذ بالصبر الفعال، "صبر الطائر الحزون"، فتكثر الدعوات والنداءات، وقد تقتنر أحيانا باللوم، أو التلاوم...

المهم أن نتحرّك، وكفى...

على كلّ، "الجماعة العلمية"، و"مراكز التفكير والأفكار"، و"حلفات الحوار العلمي" الساخن، والحوار الجادّ المثمر... كل ذلك هدفنا، ومقصدنا، ورسالتنا... سواء حقّقناه، أم هلكنّا دونه، فبروح الهجرة نعتقد ذلك، ونروم من ورائه الخير العميم، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠).

سيولد بحول الله الفجر الجديد، من رحم الخير والجمال المطلق، بعنوان: "الجمال خير، والخير جمال"... وهل ثمة مصدر للجمال وللخير غير الوحي الربّاني، وغير الجميل الماورائي... ربّ العلم وربّ العالم، وربنا وربّ كلّ شيء؟!



أهو الحظ، أم التوفيق، أم العمل؟^(١٩)

كثيرٌ من الناس يعتمد على الحظِّ، ويأمل فيه، كي يحقِّق شيئاً ذا بال في حياته؛ وكثيرٌ من الناس لا يؤمن البتَّة بالحظ، ويعتقد أنَّ العمل والعمل وحده هو السبيل للوصول إلى المبتغى؛ وكثرة أخرى من الناس تجعل التوفيق الربَّاني هو السرُّ الوحيد لبلوغ المراد.

فأَيُّ من هذه الفرق أهدى سبيلاً، وأقوم قِيلاً؟

بدايةً، يجب أن نُفكَّ التعارضَ الموهومَ بين هذه الأسباب الثلاثة؛ فليست الواحدة منها بالضرورة بديلةً عن الأخرى؛ ومن ذلك أنَّ توفيق الله للعبد ميسِّر لسبيل العمل، وهدايةً إلى العمل الصالح المتقبَّل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧)، كما أنَّ العمل الصالح مدعاة للتوفيق ومقدِّمة له. فالتوفيق إذن لا يلغي العمل، والعمل بالتَّبَع لا ينفي التوفيق.

ومن جهة أخرى، ثمة علاقة عضوية بين الحظِّ والعمل؛ يقول ستيفن ليكوك: "أنا مؤمن جداً بالحظ، وكلُّما زاد كدِّي في عملي زاد حظِّي". فهو بهذا يجمع بين الحظِّ والعمل، ويعتبرهما متلازمين ومقترنين، فلا عمل بلا حظِّ، ولا حظُّ بلا عمل. بينهما علاقة اطراد وتلازم.

ويعجبني في هذا المقام عالم لا يُعرف كثيراً، رغم أنه حقَّق الكثير في تاريخ علم الفلك، وهو مكتشف الكوكب السابع في النظام الشمسيّ، أي الكوكب المسمَّى بأورانيوس، وذلك سنة ١٧٨١ للميلاد؛ وله مع ذلك

^(١٩) الجزائر، ٢٥ يوليو ٢٠١١.

العديد من الاختراعات في مجال صناعة المقاريب، والصناعات الفلكية، وفي الموسيقى... وغير ذلك.

إنه "ويليام هيرشل"، الألمانى الأصل، من مدينة هانوفر؛ الذي تدرَّب على الرؤية كما تدرَّب من قبل على السماع، فكان إضافة إلى الموسيقى فنانًا في ترُقُب السماوات؛ وهو القائل في ذلك: "الرؤية هي -بوجه من الوجوه- فنٌ يجب تعلُّمه. لقد قضيتُ الليالي الطوال في التمرُّن على الرؤية، وسيكون من الغريب أن لا أكتسب حذقًا وبراعة نتيجة هذا التمرُّن المستمر". وهو بهذا يجعل العمل والتمرُّن والمجاهدة مفتاحًا للتفوق والإبداع والابتكار، بل هما متلازمان تلازمًا تامًّا؛ فلا عمل بلا ثمرة، ولا ثمرة بلا عمل.

ويوم اكتشف أورانيوس، وسجِّل اسمه بماء الذهب في تاريخ العلم عمومًا، وعلم الفلك بالخصوص، انقسم العالم إلى معجَب وحاسِد، وكثر القيل والقال عن هذه الثورة العلمية العجيبة؛ يومها أصدر مقولة لا تقلُّ أهمية عن اكتشافه الفلكي، جاء فيها: "لقد افترض عمومًا أنَّ الحظَّ السعيد هو الذي جلب هذا النجم إلى ساحة رؤيتي؛ هذا خطأ واضح. كنتُ أقوم بانتظام بفحص كلِّ نجم في السماء، ولم أكن أقتصر على تلك النجوم التي لها هذا القدر من السطوع، بل كنتُ أتعدها إلى النجوم التي أقدارها أصغر بكثير. في تلك الليلة جاء دوره ليُكتشف. كنتُ أتصفح تدريجيًّا المجلد العظيم الذي ألفه خالق الطبيعة، ووصلتُ الآن إلى الصفحة التي كانت تحوي الكوكب السابع. ولو حال انشغالي في تلك الليلة دون العثور عليه، لعثرتُ عليه في الليلة التي تليها".

لاحظ معي، أنَّ العمل مجلَّبة للتوفيق، وأنَّ التوفيق كان فتحة للحظ،

وَأَنَّ الحِظَّ حليف العامل المثابر، وَأَنَّ التوفيق هدية لا تخطيء العامل الصابر؛ فالذي نعدمه اليومَ ليس هو اكتشاف نجم أو كوكب أو أي شيء آخر؛ وإنما هو العمل الدؤوب المنظم الذي لا ينقطع؛ أَمَا النتيجة والثمرة فهما متلازمتان تلازم السبب للمسبب؛ ولعلَّ هذا يفسِّره قول الله جل وعلا، عن ذي القرنين، الذي ما دخل بلداً إلا وأحاله إلى حضارة وحركة، وما ذلك إلاَّ أَنَّ الله تعالى آتاه من كلِّ شيء سَبَبًا ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٥)، أو ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾؛ ثم لم يخرق منظومة الأسباب، ولم يحلم بالثمرة دون شجرة، ولا بالشجرة دون جذور، ولا بالجذور دون تربة وماء وهواء...

إنها، -إذن- حكمة الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠)، وهو الذي لا يُضِيعُ عمل عامل متَّهما كان انتماؤه وعصره ومصره ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

هل أنت أخي من العاملين؟

إن لم تكن، فلا تحلم بتوفيقٍ ولا حظ؛ وإن كنته فتيقن أنَّ توفيق الله سيكون حليفك، وَأَنَّ الحِظَّ السعيد سيفتح أبواب الخيرات أمام ناظريك... فأبشر، وزغرد، وانتظر.... فما أحلى كلَّ ذلك بعد العمل، والجهد، والهجرة.

الكلام لك، واسمعي يا جارة.



الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية^(٢٠)

تعني "الرؤية الكونية" تأسيس تصوّر، وإعطاء حكم، وتبني موقف، من العوالم الثلاثة: "الله، الإنسان، الكون"؛ وإنّ بناء الرؤية الكونية متحقّق، وواضح المعالم، في "النموذج التوحيدي"؛ لأنّ "الصورة والحكم والموقف" منطلقها جميعاً الوحي والعلم المطلق، الذي لا يعتره نقص، ولا تبدو له البدوات: ﴿عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣٨)، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣)؛ وكلّ ذلك يدركه العقل عبر مصدرٍ للعلم، يعتمد السّنّية، ويعترف بالنظام، ولا يتأثر بالمتغيرات، وهو مع ذلك يقرّ بوجودها؛ ومن ثمّ إذا حدث تشوّش فإنما يحدث في مرحلة التطبيق، فقط.

أمّا الذي ينكر الوحي "مصدراً للمعرفة"، فإنّه يبنّي رؤيته الكونية على "الحس" و/أو "العقل"، ومن ثمّ تصبح "المعلومة" لديه ذات أهمية بالغة، لا يمكن القفز عليها في تأسيس رؤيته الكونية؛ وهنا يصدق فيه قول "إدغار موران"، في مقاله "نحو براديغم جديد": "إنّ المشكل بالنسبة للإنسان المواطن، هو: في كيفية الحصول على المعلومات حول العالم، وكيفية اكتساب كفاءة تقطيعها وتنظيمها".... ومن ثمّ يدافع موران عن "فكر التعقيد".

بشيء من "التحليل العلميّ الوسط"، المتسم "بالصدق"؛ يمكن أن نقرّر أنّ الرؤية الكونية لا تتأسّس على "المعلومات" المتغيرة، وإنما على

^(٢٠) إسطنبول، ٨ أبريل ٢٠١٢.

"المعرفة" الثابتة، وعلى "اليقين"، وهذا لا يعني بالطبع، التنكّر للمعلومة، وإنما هو وضع لها في نصابها؛ فأنت لا تبني "تصورك، وحكمك، وموقفك" عن "الله" سبحانه، على أحداثٍ عن البورصة المالية، أو على أخبار عن الأزمات السياسية، أو حتى عن اكتشاف علميٍّ معين... إنك لا تنشئ أسس وجودك على الرمال المتحرّكة، ولا فوق الأمواج المائتة. وإذا كان ذلك -فيما يبدو- بديها في حقّ الله تعالى، فإنّ العقول "المنطقية - البراغمية"، قد لا تراه كذلك في شأن "الإنسان، والكون"؛ ذلك أنّ الصورة، والحكم، ومن ثمّ الموقف، كلّ أولئك يتغير تبعاً "للمنطق الآني"، وبناء على "المنفعة والمصلحة" المحسوبة المحدودة؛ أمّا لو أعدنا الأمور إلى نصابها، ولم نلغ "المعقولة، ولا المعيارية، ولا القيمة"، فإننا نعتزف أنّ "الإنسان" يستمد حقيقة وجوده (نظرية الوجود)، وحقيقة معرفته (نظرية المعرفة)، من "الثابت المتعالي"، لا من "المتغير" المخلد إلى الأرض، ولا يندّ "الكون" عن هذا التقرير، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ (الكهف: ٥١).

وبلغة القرآن الكريم، والتراث الإسلامي، بل والدينيّ عمومًا، نقول: إنّ الرؤية الكونية هي التوحيد، وهي الإيمان، وهي العقيدة؛ وإنّ ما سواها من العلم، والمعلومة، والخبر، والحدث، والآني، والظرفي... كلّ ذلك هامّ، وضروريّ، وهو تطبيقي، ودليل، وطريق... إلى الرؤية الكونية، وليس هو الرؤية الكونية بذاتها، ولا يليق أن يكون أساسا لها.

فكلّ حادثة، مهما بدت صغيرة، أو عفوية، إنما هي دليل على الله تعالى، وعنوان على حقيقة الإنسان والكون؛ فسيدنا سليمان عليه السلام، من حديث نملة

واحدة، تأثّر، وخشع، واستذكر حقيقته، وحقيقة الربّ المنعم التواب، ومن ثم رسم لنا صورة "رؤيته الكونية التوحيدية"، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٨-١٩).

فلنعالج إيماننا ورؤانا الكونية، ثم لنعالج على إثر ذلك علمنا ومعلوماتنا، ولنحرص على أن تكون الثمرة عملاً صالحاً يرضاه مولانا وخالقنا؛ ولندعُ في كلّ زمن وأن: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩).

وليكن دعاؤنا بنفس حضاري عالمي، لا بنفسٍ خائرة خائرة، فشتان بين أن ندعو كما دعا عقبة بن نافع رضي الله عنه، وهو يودّع أبناءه الوداع الأخير، متوجّها لفتح شمال إفريقيا: "اللهم تقبل عملي، واجعلي في عبادك الصالحين"، وأن ندعو، ونحن هائمون في وادٍ، منغمسون في جدل، قابعون في ركن؛ لا تصدر منّا سوى الكلمات والألفاظ، لا القلب يحترق، ولا العقل يفور، ولا الجوارح تتوفّر؟!!



من التوتّر إلى القضية.. كيف ولماذا؟^(٢١)

كلّ مجتمع في مرحلة "الحضارة"، وفي نقطة البدء بالخصوص، يكون مشحوناً بتوتّر كاملٍ، يميّزه عن حالة مجتمع آخر في مرحلة "ما قبل الحضارة"، أو مجتمع يعيش "ما بعد الحضارة".

لكنّ السؤال المحوري، في هذا السياق، هو: ما الذي يؤسّس للتوتّر؟ أهو الدين؟ أم هو العلم؟ أم هي الأحداث التاريخية؟ أم هي الزعامات والشخصيات الكاريزماتية؟

لقد أكّد مالك بن نبي "أنّ التوتّر فكرة دافعة، لا يمكن بثّها عبر نظرية، أو بأيّ إرشاد تعليميّ"، أمّا المؤرّخ توينبي، فيذكر أنّ الطرف المفضّل لظهور التوتّر يكون عندما "تضطرّ جماعة بشرية للرّد على تحدٍّ ما، بعمل منظمّ".

إلاّ أنّ التفسيرين غير مقنعين منفردين، وذلك لوجود حالات وأمثلة في التاريخ من كلّ نوع:

ففي غار حراء -مثلاً- ولدت أعظم حالة توتّر عرفتّها البشرية، من خلال الوحي، أو على صورة "دين".

كما أنّ الثورة العلمية في أوروبا كانت وراء التوتّر الذي غمر القارة الباردة بحراك مادّي وأدبيّ شديد، دفعها في كثير من الأحيان إلى السطو على الشعوب الأخرى، واكتشاف قارة جديدة -فعلياً- بعد الاكتشاف الجغرافي.

(٢١) ١٩ فبراير ٢٠١١.

ولقد كانت أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية شعلَةً لبعض الشعوب المستعمَرة، ولدت لديها توترًا، ودافعية للاستقلال لا تقاوم، رغم افتقادها لكلِّ الوسائل والمعدّات الحربية اللازمة، وما الجزائر إلّا مثال حيّ، من خلال فكرة "الاستقلال" و"الثورة".

كما أنّ بعض الزعامات التاريخية دفعت شعوبها نحو توتر إيجابي أحيانًا، وسليبي في أحيان كثيرة، يمثّل للنوع الأوّل بابتسامة بادي، وبديع الزمان النورسي، وعلي عزّت بجوفيتش؛ كما يمثّل للحال الثانية بنابليون، وهتلر، وجمال عبد الناصر.

هذا التوتر يسمّيه فتح الله كولن "الهَمّ"، ويقول في شأنه مخاطبا شباب الخدمة: "إني أحمل همًّا كبيرًا، لكنني وجدّكم تضحكون وتمرحون، وتستسيغون النوم، فكأنّ شيئًا لم يقع، وكأنّ أمّة المصطفى ﷺ اليوم بخير وعافية... والحقّ أنني أريدكم حاملي همّ... فوالله لو أنّ الله تعالى أفدّرني لثرتُ على قلوبكم شرارات من الهَمّ، إذًا لجفاكم النوم إلى الأبد..." وفي وقت آخر يقول: "ما تمكّنّا من تحويل إيماننا إلى همّ ومكابدة لكي نحترق فننطلق..".

كما أنّ مالك بن نبي يسمي هذا التوتر في بعض كتبه بـ"مبّرّ الوجود"، أو "دور المسلم"، أو "رسالة المسلم"، ويقول: "يجب أن يفكر المسلم كيف يسير في اتجاه التاريخ، كيف يستغلّ الظروف السانحة التي تنهّأ له على المحورين: المحور الذي فقد المبرّرات التقليدية: الغرب؛ والذي ينتظر مبرّرات جديدة: الشرق".

ولقد يطلق على التوتر الحضاري أحيانًا مصطلح "القضية"، وهي في عمومها "رسالة المجتمع"، إذ لا يقال "قضية فلان أو الفئة الفلانية" إلّا

مجازاً، وإنما رسالة فلان، وقضية الأمة الفلانية. والقضية هي القطب لجميع رسائل أفراد المجموع.

ويبقى السؤال عميقاً: لو حاولنا اليوم أن ننفخ الروح في المجتمعات الإسلامية، ونزرع فيها "التوتر"، و"الهَمَّ"، و"الدور"، و"المبرر"، و"القضية"... أي كل ما من شأنه أن يُلهب الحماس المنظم، والفعل المخطط، وإرادة الوجود، واليقين في النصر، والعمل الدؤوب... كيف لنا ذلك؟ ومن أين نبدأ؟

إنَّ الذي دفعني إلى البحث في هذه المعضلة الحضارية هو جملة من الملاحظات التي تنطلق من الواقع -كما هو- لا كما ينبغي أن يكون، بقصد تجميعها في نسق شمولي، باعتماد التحليل المركَّب، بعيداً عن الاختزال:

الحادثة الأولى: في سفر لي إلى مدينة من المدن الجامعية في الجزائر، التقيتُ بالعديد من أساتذة الجامعة، وحاورتهم في شتى الميادين العلمية، وحاولت الاستماع إلى اهتماماتهم، فوجدت أغلبها -للأسف- تدور حول "اللُقمة"، و"المنزل"، و"المنحة"، وهي "هموم" مبنية على "قلق منغلق"، لا يورث تفكيراً، ولا يولّد عملاً؛ أي أنه لم يتجاوز عالمي "الأشياء" و"الأشخاص" إلى "عالم الأفكار"، بله أن يتحول إلى رشد، أي إلى "حركية" وإنجاز حضاري يحسب له حساب في "عالم الأفعال!".

الحادثة الثانية: لا أحد يجهل أحداث كرة القدم قُبيل كأس العالم الصارمة، وبخاصة بين الجزائر ومصر.. ففي غياب "التوتر الحضاري" تمكّنت وسائل الإعلام، وجهات سياسية مغرضة، أن توهم الملايين من الناس في البلدين أنَّ "قضيتهم" و"حقيقة وجودهم"، و"معنى حياتهم"

متعلّق بفوز فريقهم وانهزام "فريق العدو!"... فكان ما كان من سخافات وتفاهات؛ ولا تزال بعض الجرائد والقنوات تتخذ من العداوة المستحكمة بين البلدين، بسبب المباريات، حصان طروادة، ووسيلة خبيسة لزيادة المبيعات، واستقطاب العقول الساذجة.

الحادثة الثالثة: في مشاريع تربية أساهم في الإشراف على تكوين إطاراتها فكريًا وحضاريًا، أجد أحيانًا بعض الأطراف الفاعلة تفتقد "الحرارة" و"التوتر" اللازم للتحدي، وتقتل -بسبب ذلك- روح المشروع وجدواه؛ وبالمقابل هنالك من له "دافعية" و"روح قتالية" -بلغة الرياضة- غير أنّ هذا وذاك على السواء يسألان عن "القضية"، وعن "مبرر الوجود"، ذلك أنّ "الرؤيا المستقبلية"، و"رسالة المؤسسة" لا تكفيان لوحدهما لتحريك كلّ الجهات المرتبطة بالمشاريع.

من هنا جاء السؤال مرّة أخرى: كيف لنا أن نولّد قضية وقطبًا جامعًا لأبناء الوطن -على الأقل- وأبناء الأمة الإسلامية في النهاية... ثم، من أين نبدأ؟

بدايةً أقترح أن تكون القضية من منطلق قرآني، معتبرة بأحداث السيرة النبوية، وبوقائع نزول الوحي؛ فتكون القضية هي: ﴿اقْرَأْ﴾، ولعلّ هذه الصيغة المختزلة تدفعنا لإتمام الآية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١). وقد يعبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، شارحة ومبيّنة، وهي: أن تكون قضية الأمة اليوم "أن أنفي الجهل عني وعن أمّتي".

ويلاحظ أنّ هذه القضية لا تخصّ طلبة العلم وحدهم، ولا العلماء بمفردهم؛ ذلك أنّ كلّ تخلف في كلّ مجال مؤداه "الجهل"، ولا يمكننا اليوم أن نقوّي تجارتنا، أو زراعتنا، أو عسكرينا، أو صناعتنا... أو أيّ

مجال، من أي نوع كان... إلا "بالعلم"، و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و"نفي الجهل عن الذات" أولاً، ثم عن "الأمة" بالتبع.

ولعل ما يشرح -مبدئياً- صيغة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، هو أنها جامعة لـ"الدين" و"العلم" معاً، فلا هي "علموية-علمانية-وضعية"، على النسق الغربي؛ ولا هي "دوغماتية-لاهوتية-تصوفية" -بمعناه السلبي طبعاً- بالشكل الذي يسم العالم الإسلامي في مراحل تخلفه، أو في مرحلة "ما بعد الموحدين" باصطلاح مالك بن نبي.

وتبقى هذه القضية، إذا ما اقتصرت على جملة من المشاريع، أو على ثلة من الناس، مجرد رسالة، لا تملك صفات "الشّد"، و"الدافعية"، و"الحرارة"... ولذا، وجب على الجميع، أن يشارك في صياغتها النهائية، حتى إذا ما اتفقنا عليها، وجب علينا نشرها، وزرعها، والعمل بها، والدعوة إليها، وإيجاد آليات لإنزالها إلى أرض الواقع.

ولقد يعترض معترض فيجعل السلطة السياسية شرطاً أساسياً للقضية، توجد بوجودها، وتعدم بعدمها؛ غير أنني أرى أنّ السياسة نتيجة وليست مقدّمة، هي بمثابة الثمرة لا الشجرة، تساعد ولا تفرّج؛ وتضييع الوقت في انتظار تحرّكها، وإشغال النفس بترقب ما يصدر عن الساسة، هو نوع من العبث في ظروفنا الراهنة، أو هو من قبيل سؤال التعجيز: "أيهما أسبق: البيضة أم الدجاجة". أقول، وأفتح المجال للحوار: لا البيضة ولا الدجاجة، لا القاعدة ولا القمة؛ وإنما هي القضية والتوتر ومبرر الوجود... فالقضية تصنع البيضة والدجاجة على السواء، بفكر وفعل، وبإيمان وعلم وعمل، تحت صيغة أولية مقترحة، هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

فهل نحن فاعلون؟!

آلام التفكير^(٢٢)

ما أثقل تلکم الساعات التي تدُّ فيها الأفكارُ عقولَ البشر، ومن لم يذق آلام التفكير ساعة لم يعرف للألم سبيلاً؛ فالآلام التي تعرض للإنسان جمّةٌ ومختلفة الأسباب؛ منها: آلام الجسم، وآلام النفس.. ومنها: آلام الفراغ، وآلام الخيبة... وغيرها كثير؛ لكنّ من أشدّ هذه الآلام قساوة، ومن أكثرها ندرة: آلام التفكير.

فالناس يلامسون عادة ثمرات الفكر، ويتمتّعون غالباً بنتائج العقل، غير أنهم قلّ ما يدركون أنّ صاحب هذا الفكر قد عانى الأمرين، وتجرّع المِحنَين؛ وأنه قبل أن يضع فكرته كاملة كمال الوليد يوم يهلّ، قد لاقى آلام المخاض أضعاف ما لاقى الحامل، فإن يكن في أحشائها وليدٌ واحدٌ، فإنّ في جوف المفكّر آلاف الأجنّة، أنّى له أن يختار أيهما يضع وأيها يلغي، وأيها يقبل وأيها يرفض؟

أمّا من ينقل ما قاله الآخرون، ويروي ما يبده المبدعون، فإنه قد يتّوهم التفكير، وقد يقول: "أنا أفكّر، وأنا لا أتألم!"... ومن ثمّ وجب علينا أن نعذره؛ لأنه حامل علم وليس عالماً، ولأنه حامل فكر وليس مفكراً... فقد صدق والله، فلا مخاض ولا معاناة؛ وإنما متعة آنية لا أصل لها ولا فصل.

دعوتُ إلى بيتي -هذه الأيام- مالك بن نبي، فخصّصت له كلّ وقتي، وقلّبت آراءه وأفكاره مرّات ومرّات... فكانت النتيجة أن انتقلت معاناته

(٢٢) الجزائر، ٨ أبريل ٢٠٠٩.

إليّ، وأُصِبت بعدوى التفكير مثلما أُصيب؛ ولم أُنْذِر يوماً عشتُ فيه نفس الإحساس، إلّا يوم قرأت للمسيري رحلته الفكرية، وإبداعاته حول القضية الصهيونية.

كان مالك بن نبي فكراً يمشي على رجلين، ولقد حمل هموم أمته عبر القرون، فلم تشغله المحليّة عن الوطنية، ولا الوطنية عن العالميّة... إنه بحقّ رائد التفكير المنظّم المبدع في عصور "ما بعد الاستقلال"، بل إنه كان مخضّراً، عرف الاستعمار وخبره في شكله المباشر، وعان الاستعمار وشخصه في صورته الملتوية الجديدة... فلم تفتته حيله وألعيه في هذه الحقبة ولا في تلك.

وأنا أقرأ "شروط النهضة"، أو "وجهة العالم الإسلامي"، أو أي كتاب آخر من كتبه، أجد أنّ شيئاً لم يتغير فوق ظهر الأرض، وإن تبدّلت الأزمان والتفاصيل والأسماء والمظاهر، أمّا الحقائق والأسباب والإشكالات فهي هي، ذلك أنّ "الإنسان" و"الأفكار" في العالم الإسلامي لم تشهد نقلة ولا نهضة معتبرة، باستثناء بعض المبادرات المشكورة، والجهود المعتمدة، ومثل هذه النماذج وإن كانت بواكير أو شواذ، فإنّ الباكورة قد تزهو وتنضج يوماً، وإنّ الشاذّ قد يعمّ ويقاس عليه، ولو بعد حين.

لكن، فيما عدا ذلك، وفي جزائرتنا بالخصوص، لم تردد الأوضاع إلّا تدهوراً وتقهقراً؛ فلقد مات الأمل في كل ما هو إسلامي: "الأحزاب الإسلامية"، و"الجمعيات الإسلامية"، و"الشخصيات الإسلامية"، ذلك أنّ أغلبها فضّل "البولتيك" على "الثقافة"، وآثر "المصلحة" على "المبدأ"، وتغنّى بلغة "الحقوق" متجاهلاً منطق "الواجبات"... فسبح الجميع مع التيار، تاركاً المبادرة للواقع، يصنع آلهة من الحلول وعجولا من الفضة،

فيدفع الناس لعبادتها والسجود لها.

أما الحركات الوطنية، والأحزاب الوطنية، والجمعيات الوطنية، والشخصيات الوطنية... فإنها لعبت على وتر الشرعية التاريخية، ويبدو أنها ماهرة في هذه اللعبة منذ فجر الاستقلال؛ فدبرت أمورها بليلى، وتلاعبت بالمفاهيم والمحتويات، حتى بدا وكأن شيئاً لم يتغير، فالوطنية هي الوطنية، والديمقراطية هي الديمقراطية... لكن المحتوى قد أفرغ من محتواه تماماً، فحوّلت لغة "البولتيك" البلاد قاعاً صفصفاً، لا زرع فيه ولا ضرع.

ويؤسفني أن الفكر نفسه ترهّل وعجز، فلا نعرف اليوم "كاتباً" أو "مفكراً"، أو "ناقداً"، يحلل هذا المركّب بعناية، وليس أمام أعيننا مثيلاً لابن نبي، ذلك أن "الحرفية" -بفتح الحاء- و"السطحية" قد استشرّرت في مقالات الجرائد، وفي صفحات الكتب، فبات الهمُّ منحصرًا في "الجمع والرص" عوض "التحليل والإبداع".

وإني لأهيب بالقارئ أن يذكر عنواناً واحداً، صدر في هذه السنوات العجاف، يضع الإصبع على الجرح، ويصف الدواء للداء، وصف خبير بصير.

ولعل أفضل منهج، وأمثل طريق، نقترحه اليوم هو "الجهد"، و"الاجتهاد"، و"الجهاد"، و"المعاناة الفكرية"، و"تحمل آلام المخاض"، و"الصبر الجميل"... لعلنا ندرك المطلوب، ونعلن ساعة الخلاص لأمتنا، بعيداً عن الخطابة والادعاء... فالحضارة وليدة صمت وعمل، وليست بنت هرج ومرج.

بؤرة تفكيرى؁ وخطى المنهجى^(٢٣)

صفة العلم: هو النظر.. ووظيفته: التفسير والتنبؤ.. وخاصيته: الضبط والوضوح.. وغايته: تحقيق سعادة الإنسان.. وآله: العقل.. ومادته: الوجود.. ودليله: القرآن.. ومحطته: الزمان والمكان... ومثاله المطلق سيد الخلق محمد ﷺ.

العلم شرفٌ كُلُّهُ؁ والعالم كريم بذاته؁ والمتعلم سعيد بفعله متفائل بمستقبله؁ والجاهل شقيٌّ بتضييعه للفرص وملاحقته للسراب.

كيف نبدأ من حيث ينتهى العلم؟

وكيف نحول مادة العلم إلى واقع؟

وكيف نركز تنظير العالم ليتحول إلى طاقة فاعلة؟

كيف نجعل كل الكتب؁ والمقالات؁ والمحاضرات؁ والمواعظ؁ والمقولات؁ والنظريات... تنتهى إلى آليات للتفعيل والفعالية؁ لا إلى توصيات ونصائح لا تمت إلى الواقع بصلة؟

ما بعد العلم؁ وما بعد الفكرة؁ وما بعد النظر... حلقة فارغة فى الفكر الإسلامى اليوم؁ عمومًا.

تختمر الفكرة فى ذهنى؁ ويستحكم الإشكال؁ وتتوالى الافتراضات؁ فتتهجم على الاختبارات والاختيارات... وأستجمع ملكات الذهن؁ فأجمع الأفكار؁ وأكتب ما أظن -أو أعتقد- فى تلك اللحظة أنه الحل الأخير؁ والجواب النهائى؁ والدواء الأكيد لهذا المرض العضال.. ثم

(٢٣) المسودة: سبتمبر ٢٠٠٨؛ الضبط والنشر: ديسمبر ٢٠١٠.

أنتهي بصياغة رأي أو نموذج أو نظرية متكاملة المعالم.. ثم أُلُوذُ إلى تأليف مقال، أو تنضيد كتاب، أو إلقاء محاضرة، أو إعداد دورة تكوينية... ويكون آخر العنقود فكرة ناضجةً مستساغة طيبة طاهرة حلال، تُسبي الناظرين، وتريح المنتظرين.

في هذه النقطة بالذات، أُنحوِّل إلى "راصدٍ" لما كتبتُ فيه، وما نظرتُ له، وما حللتُ به... أي أُنقل إلى "المستوى الثاني" من النظر، وإلى "السلم" الأعلى من الإدراك، وهو مستوى "ما حول"، وسلم "الميتا" (Meta) كما يسمَّى.

بهذه الرؤية الجديدة أجدُ أنني تحولت إلى مقترح، وواعظ، وناصح... أَدفع القارئ بالكلمات إلى تنفيذ ما كتبتُ فيه، وأحثُّ المستمع بالكلمات إلى تمثُّل ما أَلقيت عليه. ولكن هيهات، ثم هيهات...

وأعود إلى البحث عن "ميلاد فكرة" جديدة، فأعيد نفس المراحل مرحلة مرحلة، بلا كلل ولا ملل... وهكذا، إلى ما شاء الله تعالى.

متى العمل؟ وكيف العمل؟

لولا المشاريع الأرضية، الواقعية، العملية، التربوية، والفكرية... التي تشغلني وأشغلها، والتي تغمرني وأغمرها، لكنتُ في قلق مميت، ولعشت في دَوَّامة قاتلة؛ لكن -ولله الحمد- فإنَّ الانتقال من فعل إلى فكر ومن فكر إلى فعل جعلني أؤمن بهذا السبيل، ولا أجد له بديلاً. هذه "بؤرة تفكيرِي"، وهذا "خطِّي المنهجي"، وهذا محطُّ جهدي، ومحلُّ جهادي، منذ أمد، وإلى حين، بإذن الله تعالى.

التفعيل، الفعالية، الإنجاز، العلم النافع، الواقعية... تعددت الصفات،
والمؤدَّى واحد... إنه: "الرشد" بكلّ أبعاده، وبجميع مواصفاته.

قد يطول الوقت -بل سيطول يقينًا- لإيجاد الجواب المريح نسبيًا،
لكنّ الانكباب والبحث والتنفيذ، بعقلية العابد، وروح المجاهد، وأداء
القائد، وخلُق الصادق... كلُّ أولئك ضرورة ولا ريب، وواجب شرعيّ
ولا شك... فالجديد النافع دائما يولد من رحم المعاناة.

هل أنا في حاجة إلى مزيد من القراءة؟

أم إلى مزيد من الكتابة؟

أم إلى مزيد من التأمل؟

أم إلى مزيد من الإنجاز؟

أنا، وأنت، وهو، وهم، ونحن... جميعًا، في حاجة ماسّة إلى كلّ
ذلك، وإلى أكثر من ذلك... في حاجة أولاً أن ندرك هذا البعد الحضاريّ
الدقيق، وأن نتحرّك على أساسه.

وقبل ذلك وبعده، نحن في حاجة ملحة وأكيدة إلى توفيق من الله
تعالى، القائل في محكم التنزيل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا عمل، ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾
وهذا علم؛ والقائل في آية أخرى ﴿وَاعْلَمُوا﴾ وهذا علم، ﴿أَنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣) وهذا عمل.

عمل يسنده علم، وعلم يرفعه عمل، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).
والله الموفق للصواب.



العلم والجماعة العلمية^(٢٤)

من تمام الرشد المعرفي التفكير في "العلم"، والبحث في "آثار العلم"، وفي "صورة العلم"، و"أنواعه"، وفي "أسبابه"، و"غاياته"، و"يقينيته"... وفيما يخص "أثر العلم في المجتمع البشري"، يقول "براتراند" راسل في كتاب له بهذا العنوان: "إنَّ الذي يهْمُ الإنسانَ هو ما يستطيع إنجازَه في هذا العالم، والإنسان المشتغل بالعلم في هذا العالم يستطيع إنجاز قدر أكبر بكثير من غيره".

ورغم أنَّ هذه المقولة وردت في سياق إلحاديٍّ، يدَّعي أنَّ القوَّة ليست كلُّها للآلهة، بل للإنسان، وبالأخصَّ العالم الذي يملك قدرًا وافراً من القوَّة... إلَّا أنَّ هذا الانحراف في التوجيه لا يعني الخطأ في الحكم كلية.. فالعلم يضاعف الإرادة والقدرة والقوَّة والإنجاز عند الإنسان؛ وذلك وفقاً لسنة كونية وقانون رباني لا يخطئ أحداً أبداً. وهو ما سماه القرآن الكريم بـ"السلطان"، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣).

فأي شيء نفعه بعلم، خيرٌ من الشيء نفسه لو حقَّقناه بغير علم؛ والعلم دائماً وفي كلِّ شيء أولى وأفضل من الجهل، والذي يعلم حجة على الذي لا يعلم؛ ذلك أنَّ العلم يهب أعمالنا صفة الشمولية والصدق والقدرة على التكرار، ويحوِّل أفعالنا إلى مهارة لا إلى مجرد ضربة لازب،

(٢٤) الجزائر ٢٤ ذو الحجة ١٤٣١هـ / ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م.

قد تصيب مرّة، ولكنها تخطئ مرات!

والحقُّ أننا لو تحرّرتنا من سجن العلم الوضعيِّ المظلم، إلى أفق العلوم الكونية المنيرة، لوجدنا أنَّ العلم الحقَّ يرادف الإيمان الحقَّ، وأنَّ سعادة الدنيا والآخرة منوطة بهذا العلم المبارك الجليل الأثر، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (مُحَمَّد: ١٩).

ثم إنَّ الخشية من الله سبحانه غايةٌ كبرى، خُلِقَ الإنسان لبلوغها، فالأقدر على تحصيل هذه الخشية هو العالم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

وفي الجنة أعدَّ الله تعالى للسعداء درجاتٍ، أعلاها، بعد درجة النبيين والمرسلين، هي من حظِّ العلماء العاملين المتقين المحسنين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١).
فبالعلم -إذن- ينجز المرء الحدَّ الأرفع من أسبابه ومقاصده وغاياته: المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، الفردية والجماعية... وهذا مدلول الأثر المرويِّ عن الإمام علي كرم الله وجهه: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم".

ومن مظاهر العجز والانحراف، التي هي من موانع الرشد والرشاد، الإعراض عن العلم، والتنقيص من قدره، والعمل والسعي بلا علم... فمما يميّز بعض المجتمعات الإسلامية اليوم، في مراحل تخلُّفها وعيشها في الضحضاح، أنَّ الإنسان والجمعية والمؤسسة والمشروع والوزارة... كلُّ أولئك يضع العلم في مقام الذيل، ثم يحقره ويزدريه، وبيحث عن النجاح خارج إطاره؛ فتكثر -لأجل ذلك- الجعجعة بلا طحين، والادعاء بلا أثر مبين... ثم يحيق الفشل بالجميع، فيلوذون إلى التفسيرات الخرافية،

اللاسببية، أو التي تستند إلى أسباب وهمية بعيدة، غافلةً عن الأسباب الحقيقية القريبة.

واعجب من بعض الناس الذين يحاربون العلم باسم العلم، ويشيدون نوادٍ للحط من قيمته وقدره، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤)؛ والحاصل أنهم أصغر من أن يتصدروا الأمة، وأعجز من أن يقودوها إلى برِّ الأمان.

ولكنَّ الخطر الذي يتهدّد الأمة كذلك، ويمنعها من تحويل مخزونها الثقافي الإسلامي إلى واقع حضاريٍّ عالميٍّ، يكمن في التنافر الذي بين عالمٍ وعالم، ومؤسّسة للعلم وأخرى للعلم، وفقهه وفقهه، ومجمّع ومجمّع، وتخصّص وتخصّص... بينما المطلوب هو بناء "مجتمعات علميّة راقية، من خلال جماعات علمية متماسكة"؛ فعصر العالم الواحد، والجهد الواحد، والفكر الواحد، والفعل الواحد... قد ولّى إلى الأبد، وحلَّ محلّه التناسق والتناغم والتفاعل والتكامل، بناء على منهج ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾، ومنطق ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾، وحقيقة "البركة في الجماعة"...

نماذج من الجماعات العلمية العالمية

• في مقدمة كتاب "الكون الأنيق: الأوتار الفائقة، والأبعاد الدفينة، والبحث عن النظرية النهائية" للفيزيائي برايان غرين، الذي صدر بالعربية ضمن سلسلة "المنظمة العربية للترجمة"، نقرأ هذه العبارة الدالة على مدى العمل العلمي المؤسسي في المحيط الغربي، يقول: "إنني أقرُّ بكلِّ امتنان بالدعم الكريم لأبحاثي في الفيزياء النظرية على مدى أكثر من عقد ونصف من السنين، بواسطة المؤسسة القومية للعلوم، ومؤسسة "ألفريد

ب. سلون" (Alfred P. Sloan Foundation)، وقسم الطاقة بالولايات المتحدة. وربما ليس غريباً أن تكون أبحاثي قد تركّزت على تأثير نظرية الأوتار الفائقة على مفهومنا عن الزمان والمكان؛ وفي الفصلين الأخيرين قمت بشرح بعض الاكتشافات التي كان لي حظ المشاركة في إنجازها. ومع أنني آمل أن يستمتع القارئ بالأمور الداخلية، فإنني أدرك أن ذلك قد يترك انطباعاً مبالغاً فيه على الدور الذي لعبته في تطوير نظرية الأوتار الفائقة. ولذلك أنتهز الفرصة لأقرّ بفضل أكثر من ألف فزيائي من جميع أنحاء العالم، ساهموا وكرّسوا حياتهم لجهود تحديث النظرية النهائية للكون. وإنني أعتذر لكل الذين لم يتضمّن الكتاب أبحاثهم، ولا يعكس ذلك إلاّ وجهة النظر التي اخترتها، وتحديد حجم الكتاب".

وفي سياق آخر، وردت إليّ رسالة من صديقي الباحث في علم الأعصاب (Neuroscience)، جاء فيها بالحرف الواحد: "صديقي، يسعدني أن أبلغك تهنئة كبيرة بعيد الأضحى المبارك، من هنا، في سان دييغو، كاليفورنيا (San Diego, California)، أين أشارك في (Society for Neuroscience Meeting)، وهو أحد أكبر التجمعات العلمية العالمية، ويشارك فيه هذه السنة حوالي ثلاثون ألف باحث ٣٠٠٠٠ من جميع أنحاء العالم" ١٦ نوفمبر ٢٠١٠.

ولا يقلّ أهمية خبرُ صدور "الموسوعة الإيرانية-الأمريكية" (Encyclopædia Iranica) وقد ساهم في تأليفها أزيد من ١٤٠٠ باحث، من مختلف التخصصات عبر العالم، كلُّ واحد منهم ألف مقالات أو أكثر في تخصصه الدقيق، باحترافية عالية، ودقة علمية واضحة. وبغض النظر عن خلفية هذا المشروع، الذي لقي دعماً سخياً من أمريكا، تبقى دلالة

الجماعة العلمية ترنُّ في العقل، وتدفع للتفكير.

أين نحن؟

في أكثر العلوم أهمية مثل "العقيدة"، أو "التفسير"، أو "الفقه" يستحيل أن نجد جماعة علمية بلغت في تنظيمها هذا المبلغ العالمي، ولا موسوعة علمية شارك في تأليفها مثل هذا الحجم الكبير من العلماء من مختلف أنحاء العالم، بل حتى الكثير من المجامع الفقهية تغرق تحت وطأة الطرق التقليدية في التسيير، وأحادية العالم العارف لكل شيء، والمشاركة الشكلية أحياناً لبعض العلماء من بعض التخصصات، دون أن يكون ذلك عملاً متفانياً منظماً سخياً.

أما العلاقة بين المؤسسات العلمية فهو رهين العلاقة بين سياسات الدول المتقلبة غالباً، وقد ذكر لي رئيس مجمع اللغة العربية السابق في سورية، أنَّ كلَّ مجمع للغة العربية يعمل لوحده، ويصدر مصطلحاته، ويحاول إبراز تفوق "الساسة" الذين على رأسه... ولذا -كما قال- يستحيل التوافق بينها في مثل هذه الظروف.

ودعم المؤسسات التجارية المالية الخاصة للعلوم وللبحث العلمي ليس تقليداً عريقاً في البلاد الإسلامية اليوم، رغم المعنى الذي تمنحه هذه المؤسسات لوجودها بمثل هذه المبادرات الداعمة للعلم، وللتعليم، وللمشاريع الخيرية الكبرى.

في كلِّ ما ذكرْتُ، يظهر تقصيرنا تجاه ديننا، وتقصيرنا في فهم قرآننا، وتقصيرنا في تنظيم سبل حضارتنا... وتتضح المستويات الدنيا لمداركنا، والعقد النفسية التي تنخر وجودنا، والروح الأنانية التي تذهب ريحنا.

ما العمل، وهل نحن فاعلون؟

ثمة جملة من النقاط العملية الواجب اتباعها، منها:

- الاجتهاد في تأسيس "جماعات علمية" في كل تخصص علمي.
- الالتحاق بالجماعات العلمية العالمية، في مجال تخصصنا، والتأثر بها، بخاصة في المنهج والأسلوب ووسائل العمل، والتأثير فيها، في الغايات، والرؤى الكونية، وسعة الدين الإسلامي الرحب.
- إذا كنّا ضمن "مخبر للبحث"، أو "جامعة"، أو "مؤسسة بحثية" في العالم الإسلامي، يجب علينا أن نتحمّل مسؤولياتنا كاملة غير منقوصة، وأن نحاسب أنفسنا عن كلّ سنّة أو دينار، وعن كلّ ثانية أو ساعة... كما يجب أن نفكر فيها بعقلية استراتيجية كونية، لا بطرحات أنانية نفعية قاصرة.

• على المؤسسات المالية والتجارية، وعلى الأثرياء وأصحاب الأموال الكبيرة، التفكير ملياً في إعطاء المعنى لما آتاهم الله من رزق، لا بنية الهيمنة أو التسلط، لكن بنية النفع العام للمسلمين، ونيل رضوان ربّ العالمين. فالواجب يقضي بالتبرع السخي، والتمويل الطويل النفس، لكل مشروع علمي جادٍ وهادف.

• للباحثين والعلماء المسلمين عبر العالم كله، وفي جميع التخصصات أقول: هل من واجبكم نقل العادات العلمية النافعة لأمتكم، والرفع من مستواها؟ كيف ذلك؟ ومتى؟ كان الله لكم، لا تترددوا... واجتهدوا.

• أخيراً، أهمس في أذن بعض أصدقائي الباحثين، الأقربين والأبعدين، وأقول: "كنا سوياً في مشاريع علمية، قريبة إلى "جماعات علمية مصغرة"،

وأنجزنا مشاريع وفق الحجم الذي كنا فيه... ثم مرّت السنين والأعوام...
والسؤال: هل من عودة جريئة للجماعة العلمية، بكلّ المقاييس العالمية؟
الله سائلنا، والله محاسبنا جميعاً... إذ خواصُّنا وذواتنا مشتّتة لا تفيد
شيئاً في تغيير ما بالأُمّة، ولا في الرفع من مستوى العلم والمعرفة، ولا
في إعلاء منسوب التمكين والحضارة.
فماذا نحن فاعلون؟ وهل نحن فاعلون؟! ومتى نحن فاعلون؟ وكيف
نحن فاعلون؟
مع التحية الخالصة لكل محبٍّ للخير، ناصرٍ للحقِّ، عاشقٍ للصدق...



رجل المرحلة^(٢٥)

قال لي: "لو كتبتَ لنا شيئاً عن رجل المرحلة، لعلنا نستفيد في مسارنا الدعوي"، وقد سمعني يوماً أفسّر أمراً بهذا المصطلح الوليد. ففكرت ملياً، ونظرتُ جلياً، ولكنَّ اليراع تأبى عليّ.. جفَّ القلم، وتصلَّبت الكلمات، ولم أجد حرفاً واحداً أذيب به الجليد؛ وما ذلك إلا لأهميّة الموضوع وخطورته، من جهة؛ ثم للحذر من أن يفهم أحد -أي أحد- أنني قصدته.

انتظرتُ طويلاً، حتى اطمأنَّ قلبي إلى أنَّ أوَّل المعنيين هو أنا، ولعلَّ أوَّل المنسحبين هو أنا؛ ومن يدري؟! ولا يزكي على الله أحد.

هنالك، نزلت المعاني من علياء القلب، ثم سقت سفوح العقل، فاخضرت التلال، وأورقت الأشجار، وسال الحبر ررقافاً... فبدأ أن الربيع يطل علينا من سامق المكان، وأنَّ الحقَّ يداعبنا ويقصر في الزمان؛ فاستجبتُ لداعي الخير، سائلاً الله التيسير والقبول، مستغفراً من ذنوبي ومعاصي، وهي كثيرة... متيقناً أنني المقصر في حقِّه وفي حقِّ الكثيرين من أهلي وأصدقائي ورفاقي في الطريق، فقلت: "لعلي أهدي لهم هذه الخاطرة، حباً ووفاء وصفاء".. فاستعنت بالله، وكتبت هذه الكلمات:

رجل المرحلة

مصطلح منحوت عبر سنوات من العمل الميداني، في مختلف المجالات الفكرية والدعوية والتربوية والإدارية... وغيرها. له قدرة

^(٢٥) إسطنبول، صبيحة السبت، ٣ مارس ٢٠١٢.

تفسيرية عالية، لكثير مما يقع فيه أي مشروع، من أكبر مستوى، إلى أصغر حجم: الدولة، والجمعية، والشركة، والمؤسسة.

وتفصيل ذلك أنه من الطبيعي عندما يبدأ مشروع ما، ويتنادى الناس إليه، تتشجع القلوب أول وهلة، وتكثر الوعود وتنتشر الآمال، فيتساوى المنخراطون فيه ظاهرياً، تماماً مثل سباق للماراتون قبل الانطلاقة، قد لا تستطيع تمييز البطل عن غيره: اللباس هو نفس اللباس، المشاعر هي ذات المشاعر، الوجهة هي عين الوجهة... حتى إذا بدأ السباق، وتسارع الإيقاع، هنا يظهر أمر جديد، وهو: "التمايز" عند بعض، و"التساقط على طريق الدعوة" عند آخرين، كما سمّاه فُتحي يكن.

إذا لم يعتبر السائرون في الطريق أنّ هذه ظاهرة طبيعية، وإذا لم يولوها العناية الفائقة، وإذا حملوا الناس ما لا يحتملون، وإذا وضعوا هدفاً لهم أن يصل كلُّ الناس في خطِّ النهاية، بنفس الحماس... فإنَّ القلق سيكون سيِّد الموقف، ويستشري الظلم، وقد يُتَّهم الناس في نواياهم، وقد يجزّمون أو يغزّمون، أو يقال لهم: "ختم القضية!..".

والصواب، أنّ ثمة فرقاً شاسعاً بين "الخيانة" و"المرحلة"، بينما الخيانة كبيرة من الكبائر؛ حتى إنّ تولي الدُّبر يعدُّ من السبع الموبقات؛ فإنَّ اعتبار المرحلة طبيعي، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أُلَافًا مِّنْ نَّاسٍ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .. ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ (البقرة: ٢٣٦) .. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ (آل عمران: ١١٣).

ولكن يبقى السؤال: بماذا نفسّر هذا التساقط؟

الجواب هو، والله أعلم: نفسره بالمرحلة؛ ونقول: ثمة رجال مؤهلون للمرحلة الأولى، وآخرون للثانية، وللثالثة... وهكذا؛ وقليل من الناس من

يتحمّل جميع المراحل، أو يحتمل كلّ الأطوار؛ فكلُّ واحد منّا معرّض للوعك، أو التعب، أو الملل، أو حتى الشكّ في المشروع نفسه... وحينها، نبحث عن المخرج، وعن المنفذ، كيفما كان الأمر.

• فبعض الناس يجد المخرج في الثورة الشمولية، والانقلاب الكلي، على المشروع والبرنامج.

• وبعضهم الآخر، يحدث الفوضى، والضجيج، حتى يبرّر انصرافه ولا يتّهم بالخيانة.

• والبعض الآخر، يفضّل الصمت والانزواء في مكان قصي، حتى يختفي عن الأعين.

• وفريق رابع، يبقى بجسده وحضوره الظاهر، ويغادر بروحه وقلبه وإيمانه، فتراه هنالك وهو ليس هنالك.

وتمام المعنى أن نعلم أنّ للانصراف من سباق الماراتون أشكالاً وألواناً، وصيغاً وإبداعات... وأن نتيقّن أنه قد يحدث هذا الانسحاب لدى جميع الأصناف: القائد، والجندي، والعامل، والموظف، والمتطوّع، والمنفق، والمشجع، والمنخرط، والمجاهد... الخ. فلا يخلو صنف من هذه الأصناف من كونه "صاحب مرحلة"، ولا يخلو رجل منهم من صفة "رجل المرحلة".

ولذا يتعيّن ابتداء، أن نتعامل مع الصورة والحادث بمعقوليةٍ وصدقٍ، لا بتشنجٍ وخرقٍ، ومن ذلك:

• أن لا يُنسى فضلُ أحد مهما كان، ومهما بدا منه، مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، سواء في ذلك فضلُ مَنْ بقي، أو فضلُ مَنْ انصرف.

• العدل ملاك الأمر كله، لقوله تعالى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨). فالعدل العدل، ترحموا وتنبصروا.

• أن لا يُعتقد الصواب المطلق في الجهة التي بقيت مثلاً، والخطأ المطلق في الجهة الثانية التي انصرفت غالباً، ذلك أنَّ المسألة تقديرية وليست من أصول العقيدة؛ فقد يكون الصواب والخطأ موزعاً بين الطرفين، طبعاً بنسب تختلف؛ ويختلف الطرفان في تقديرها.

• أن يتحلَّى الطرفان "بالعفو والصفح" لوجه الله تعالى، لا لاعتبارات وحسابات ضيقة؛ وأن لا يحملوا الحقد والحقن، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠).

• أن يبحث ذلك المشروع عمَّن يليق بالمرحلة الجديدة، بلا توائ ولا تسويف؛ فلا حرج في ذلك، وهذا الفعل لا يعني الخيانة، أو التنكُّر لما مضى، أو الظلم لمن تعب أو توقف، أو حتى وجد ما هو أفضل مما كان فيه.

• أن لا يتوقف المنسحب عن "الجهاد والاجتهاد" ضمن صيغ أخرى، أو مشاريع أخرى، أو مؤسسات أخرى... قد يجد أنها أكثر ملاءمة لطبعه ومستواه وفكره ورؤاه. قال جلُّ من قائل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ (النساء: ١٣٠).

• أن يعلم الكلُّ أنَّ الحياة، بالجميع ستواصل مسيرها، دون الجميع سوف تواصل مسيرها، فلا تتوقَّف الحياة أبداً على فئة أو فرد أو عصر أو مشروع... وهذه سنَّة من سنن المولى ﷺ، لم تُخرق حتى لخير العباد

سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤). والشاهد هنا، هو أنه ﷺ مات، ولم تتوقف الحياة، وما ينبغي لها أن تتوقف أبداً.

• ليركز من بقي في ذلك المشروع، على فكرة "رجل المرحلة"، وليصل وليرحم، ثم عليه أن لا يضيع وقته في البحث عن المبررات، وفي تفسير الاختلافات؛ لأن مثل هذا قد يستهلك الطاقة والوقت، وقد يلتهم الدين والصداقة والعلاقات كلها... ومثل ذلك يقال لمن وعمّن وفيمن انصرف، ووجد اختياراً آخر. فالغاية أكبر وأعظم من أن نشوش عليها بالجزئيات والتفاهات والخلافات.

كان خالد بن الوليد ؓ عليه شآبيب الرحمة - فداه أمي وأبي - قائداً فذاً، وسيفاً لله مسلولاً، ومثالاً للحنكة والحكمة، وعنوان الشجاعة والإقدام؛ ثم مات نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو على ذلك؛ ثم مات أبو بكر ؓ، وهو على ذلك؛ ومَرَّتْ مرحلة من خلافة عمر ؓ، وهو على ذلك... حتى إذا اقتضت الظروف، وتطلبت مصلحة الأمة، أن يحوّل خالد ؓ إلى مقود، وقد كان قائداً، فجاءته رسالة التعيين، وهو في معمرة الحروب والفتوحات؛ فكيف تصرف، وكيف تلقى الأمر؟!

إنه نسيج وحده، ودرّة زمانه، ولذا أحسن اليوم الانقياد، كما أحسن من قبل القيادة؛ فتقبل الأمر بصدر رحب، ثم بعد أمدٍ، جاءه المرض وهو على الفراش، لا فوق صهوة الخيل؛ وتقبل كل ذلك، باعتبار أنه رجل مرحلة، وأي مرحلة؛ وأنه ترك المفاتيح بيد شباب، هم كذلك سيبلون البلاء الحسن، ثم تنتهي مرحلتهم، وهكذا دواليك، والأيام دول.

فهل كونه ﷻ صاحبَ مرحلةٍ يضربُ به، أو يؤذيه، أو يخذش في كرامته؟!
كلاً، ثم كلاً، لم يزدَه فهمه لهذا المعنى إلا رفعةً ومكانةً عند الناس.. وقبل
ذلك شأوا وشأناً عند رب الناس؛ وهو الذي لو شاء تمرّد، ولو شاء لشقّ
الأمّة شطرين... ولكنه بنور الله يبصر، ومن مدرسة خير البرية تخرّج، وإلى
الله يسير، وإليه المصير... فهو ﴿نَعَمْ الْمَوْلَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال: ٤٠).



الطيور الرشيدة^(٢٦)

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ (المائدة: ٣١)...

الطيور هي أكثر المخلوقات إثارة لاهتمام بني البشر منذ أقدم العصور؛ ولعل أول التقاء طبيعي جدلي بين الإنسان والطيور، كان يوم قتل أحد ابني آدم أخاه بدافع الغيرة، والتقى بطائر "مات أخوه" لكن ليس بيده ضرورة، ولا بدافع الغيرة أكيداً.

هنالك، تحركت عاطفة الإنسان القاتل، فأشفق من جسد أخيه أن يتعفن، أو تأكله السباع الضارية والطيور الجارحة، فقرّر أن يوارى سوءة أخيه، لكن لم يهتد إلى الوسيلة والطريقة؛ وتدخلت قدرة السماء لتبعث له من يفترض فيه أن يقتات من جسد أخيه، ليريه كيف يحميه منه ومن منقاره ومخالبه...: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة: ٣١)، ولو كان هذا الغراب صاحب حيلة لما علّم القاتل ما علّم، ولما حرم نفسه من صيد ثمين.

ازدادت حسرة الرجل، فصرخ بأعلى صوته: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ (المائدة: ٣١) وكان المشهد أن ﴿أَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١).

والحق أن هذه الصيحة لم تكن آخر حسرة يغبط فيها الإنسان الطير؛ فلقد غبطه يوم أحاط بما لم يُحط به، وجاء من سبأ نبأ يقين... ولا يزال يغبطه وهو يحلّق في السماء حرّاً طليقاً، لا تحدّه حدود، ولا تضبطه

(٢٦) الجزائر، ٦ مايو ٢٠١٠.

قوانين، ولا تقيد جوازات سفر ولا تأشيرات... حتى كاد "ابن فرناس" يُودي بحياته محاولاً تقليد الطيور المحلقة، وكان ضحية نسيان "الذيل" لا غير.

هذه الملاحظات تُعطي التفوق للطيور على حساب الآدميين، غير أنَّ ثمة أموراً كثيرة يتميز فيها الإنسان، ولكن لا نعرف: هل تفهم الطيور هذه الفروق؟ وهل تغبط الإنسان فيها؟

وإن كنا نرجح خلاف ذلك، فهذه -إذن- أوَّل مفارقة تجعل الإنسان هو المميّز وهو الأفضل: إنه العقل والتفكير، واللسان والتعبير.

ولا شكَّ أنَّ بحثاً في الفروق بين المخلوقين سيكون له أعظم الأثر، وبخاصّة لو جاء على صيغة قصص علمية فنية، أو بحوث مخبرية عميقة. ولسنا في هذا المقال بصدد إجراء هذه الدراسة على أهميتها، وإنما ندفع إلى سؤاليين بديعين هما:

• هل يمكننا أن نعت الطيور بأنها "متحضرة"، ونتحدث عن شيء يسمّى: "حضارة الطيور"؟

• وهل يعقل أن نصف الطيور "بالرشد والرشاد"، ونؤرخ لشيء يسمّى: "الطيور الرشيدة"؟

سؤالان عن الحضارة والرشد

أمّا السؤال الأوَّل عن "حضارة الطيور"، فقد عالجه الفيلسوف "ألفرد نورث وايتهيد"، ثم أجاب عنه بالسلب، وعلَّل ذلك بأنَّ الطيور "تفتقد أفكاراً ذات تعميمية كافية، وثيقة الصلة بأفعالها، والعالم المحيط بها" ويقول بعد ذلك: "إنَّ حبَّ الطيور وشغفها، وجمالية أدائها، تستدرُّ محبَّتنا

وحناننا مقابل ذلك، غير أنَّ الحضارة أكثر من كلِّ ذلك، وفي إطارها الأخلاقي يمكن أن تكون أقلَّ من ذلك".

إذن، فالقدرة على "الفهم والتعميم والقياس والاختبار والإحساس بالأهمية..." هي المحدِّد الأساس لكلِّ حضارة، غير أنَّ الطيور وكلَّ الحيوانات -حتى التي توصف بأنها من النوع الراقي، مثل الكلاب والقروء- تفتقد هذه الخصائص والملكات الإدراكية المعرفية العميقة، وهذا يلخصه قولنا "العقل مناط التكليف" مع تحويل بسيط لنقرر أنَّ "العقل مناط الحضارة وشرط لها".

وبعد هذا التحليل، يمكن أن نعلن أمام الذين يتبجحون بكون الإنسان مجرد حيوان غريزي: ينطلق من رغبات جنسية "فرويد"، أو تحكُّمه دوافع اقتصادية "ماركس"، أو يضبط جنسه الانتخاب الطبيعي "داروين"... نعلن أمام هؤلاء أنَّ الإنسان أكبر من ذلك وأكثر، وأعلى من هذه الدركات التي أنزلوه فيها، ونكرِّر مع المسيري رفضه القاطع "حوسلة الإنسان" -أي تحويله إلى مجرد وسيلة- ونسانده في دفاعه عن "الإنسان/الإنسان" عوضاً عن تكريس مفهوم "الإنسان/الشيء" أو "الإنسان/المادة"... ولا مجال في منظومتنا المعرفية للمنظور الحلولي الذي يفني الروح في المادة، ويذيب المعنى في الشكل.

ويكون السؤال الثاني الذي نقترحه أعمق وأكثر دلالة من الأول، في نظرنا، وذلك أننا حين الحفر في دلالة الرشد، انتهينا إلى أنه يأتي في مرحلة أكثر تطوراً وندرة من الحضارة: فهل يمكن أن نقول عن تجمع للطيور "إنها طيور رشيدة؟" ..

سفاهة الطير أم سفاهة البشر؟

الحقُّ أنَّ الحديث عن الرشد يستلزم استحضار نقيضه، وأدقُّ مصطلح في التعبير عن هذا النقيض هو "السفه"، فهو مصطلح قرآنيٌّ عميق، وله مدخل فقهي وقانوني يندرج ضمن أحكام المعاملات، يُعرف بـ"باب أحكام السفه".

فالسفيه هو الذي "يتصرف في ماله خلاف مقتضى العقل"، وهو في دلالته المعرفية أعمُّ، أي "مَن لا يحسن التصرف في الأشياء، ويخطئ التقدير والتدبير".

وإذا كان الحكم الفقهيُّ على الأوَّل -أي سفية المال- هو "الحجر" وسلبه حق الملكية وحقَّ التصرف في ماله، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥)؛ فإنَّ الحكم على الثاني -السفيه المعنوي- هو ذاته، لكن بتعميم النسبة، ومن ثم يمنع من التصرف في كل شيء، إلا بمقدار.

ولا ريب أنَّ السفهاء في المال قلةٌ نسبيًّا، لكنَّ السفاهة في السياسة والثقافة والفكر والحضارة، أي السفاهة المعنوية هي الغالبة اليوم على بني البشر، وبخاصَّةٍ مَن يعيش منهم تحت سقف "القلة" و"التبعية" و"اللافعالية".

فهل يمكننا أن نطلق على طائر أو على سرب من الطيور صفة السفاهة؟ ونقول عنه "إنه طائر سفیه؟"، وعن السرب "إنها أمة سفیهة؟"، ومن ثم نصف الكل بأنه "لا يحسن التصرف"؟!

أم أنَّ الغريزة هي الحاكمة، وقد وصفها تعالى بقوله: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ

بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأَنْعَام: ٣٨)، إذ الشبه ليس في الرشد أو السفاهة، لكن وجه الشبه يختصر على التنظيم والعلاقات والانضباط، مع اختلاف في أسبابها ومؤداها؟

لا يختلف اثنان أن الافتراض الثاني -الغريزي- هو الأقرب للصواب، بناء على الملاحظات الحدسية، والتجارب العلمية.

الرشد والانتقال من حال إلى حال

ثم إن الرشد يفترض نوعاً من الانتقال من حال إلى حال، فالذي لم يكن راشداً البارحة، قد يكون راشداً بعد حين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (الأحقاف: ١٥)؛ لكن الطيور -خلاف البشر- لا تعرف مثل هذا الانتقال، ولا يمكنها أن تنمي إدراكها ليكون مختلفاً عن إدراك ما قبلها من الطيور، قبل ألف عام أو مليون عام... فهي هي يوم خلقها الله تعالى، واليوم، ويوم يفنيها؛ وهي مجبولة على أفعال معينة مقدرة ضمن نظام مخلوق بدقة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ (الملك: ١٩)، أمّا الطائرة التي اخترعها الإنسان، فهي خلاف ذلك، إذ بدأت بسيطة فتطوّرت وتغيّر فيها الكثير، بفعل العلم والبحث والتجريب... وهي كلّها صفات مقتصرة على الإنسان لا يشاركه فيها حيوان.

ذاتية اتباع الأسباب

وإذا كان الرشد صفة فردية، فإنه -وهذا لبّ مقالنا- قد يكون صفة جمعية جماعية، ومن ثمّ يمكننا أن نتحدث عن "مجتمعات سفيهة" و"مجتمعات رشيدة".. والفرق بينها أن الأولى "لا تتبع الأسباب التي سخرها الله لها"،

وتفتقد بالتبع "القدرة" و"التخطيط" و"التمكين" و"الريادة"... وقد تهوي إلى حضيض أدنى من الدواب والأنعام... أمّا الأمم الراشدة، فهي تلك التي آتاها الله ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٤) فاتبعت سببًا، لا بقهر قاهر، لكن بدافع ذاتي تربوي إيماني محض.

ذلك أننا نعرّف الرشد بأنه "ذاتية اتباع الأسباب"، وبذلك نواصل ما بدأه مالك بن نبي في نظرية "القابلية للاستعمار" لنرسي نظرية مكملّة نعبر عنها بمصطلح "القابلية للرشد".. والفرق بين النظريتين هو أنّ الأولى تعالج الجانب "السليبي-الإخلائي" من الظاهرة؛ أمّا الثانية فتعالج جانب التحلية والبناء.. ولكلّ نظرية بيئتها التي نشأت فيها، ومؤثراتها التي توجهها.

من هنا نقرّر أنّ الإنسان الراشد يدرك الشيء ويدرك سببه، أمّا الطائر فلا يدرك الأشياء إلّا مفصولة عن أسبابها العميقة البعيدة، غير أنّ التقدير الربّاني عوّضها بمهارات غريزية بديلة، تمكّنها من الحياة البديعة الرائعة، وهي لذلك -فطرت- على التسبيح بلا كلل ولا ملل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٨-١٩)... ويبقى المشكل الجوهرى في الإنسان السفهية -إيمانياً وحضارياً- فلا هو ممن اتبع الأسباب، ولا هو ممن رُزق الغريزة بديلاً، فمثل هؤلاء لهذا السبب وصفوا أنهم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

والسبب الأول، أو العلة الأولى باصطلاح الفلاسفة، هو: الله تعالى، الخالق لكل شيء، المبدع المقدر، الذي أحسن كلّ شيء خلقه... وقمّة الرشد -تبعا لسياقنا- تكمن في "معرفته سبحانه حقّ المعرفة"، فمن جحدته انتفى أن يكون راشداً... ولقد أدركتُ الجنّ هذا البعد العميق للرشد،

فقلت يوم سمعت القرآن الكريم يتلى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١-٢).

فهل أُمّتنا اليوم في حاجة إلى "الحضارة"، أم هي أحوج إلى "الرشد"؟
وهل جمعياتنا ومدارسنا ومساجدنا وأحزابنا ودولنا... وكلّ تجمعاتنا، قد
بلغت حدَّ الرشد، أم أنها لا تزال ترتع في برك السفه والسفاهة، بشتى
أشكالها، وبمختلف أنواعها؟!

إنَّ إطلالة واحدة على الجرائد الوطنية والأخبار العربية... وإنَّ نظرة
واحدة في الأحوال المحليّة، وفي الأزمات العالمية... لتدفعنا إلى القول:
"بيننا وبين الرشد بُعد المشرقين، وهو أكثر ندرة في تجمعاتنا من الماسّ
المفرك، ومن اليورانيوم المخصَّب... وفي انتظار بلوغنا درجة الرشد
والتمكين والاستخلاف، يمكن أن نتخذ "الطيور قدوة"، فهي أحسن حالاً،
وأوفر حظاً منا.

فاللهمّ اجعلنا من الراشدين، وأبرم لأمتنا أمراً رشداً... آمين.



أقزام البامبوتي، وجغرافية الإدراك^(٢٧)

كنت أحلل ظاهرة "حجم الإدراك" لدى الإنسان، وعلاقة ذلك بعمر الفرد وخبرته وبيئته وتاريخه وجنسه ودينه وعلمه... وكل ما من شأنه أن يضيف "قطرة" في بحر الإدراك لديه أي لدى بني الإنسان؛ وكان ذلك ضمن تطوير نظرية "الوعاء الحضاري" و"النسيج الحضاري"، المرتبطة عضويًا بـ"نموذج الرشد".. فكان المصطلح الذي أثارني، والذي وجدت فيه "القدرة التفسيرية العالية" لما أعمل فيه عقلي، هو "جغرافية الإدراك" الذي نحتته بالمناسبة، لعله يرقى إلى "مفهوم" أعمق وأوسع مدى؛ فحاولت أن أبحث -بالوسائل المتاحة- عن هذا المصطلح المفهوم، لعله قد صيغ ووظف من قبل؛ فبحثت باللغات التي أعمل بها، أي العربية، فالفرنسية، فالإنجليزية... غير أن مصطلح "إدراك الجغرافية" كان هو السائد، وهو الوارد بعد كل بحث رقمي؛ وبدهي أنني لا أقصده، وليس هذا ما أعنيه في سياق هذا. ثم إني لا ألغي وجوده، لعلي لم أتعن فن الصياغة.

ولقد وقعت على نص لسعدون محسن، نشره في مجلة "الحوار المتمدن"، بعنوان "حدود الإدراك في منظومة التلقي الإنساني"؛ ورغم أن هذا النص جاء في سياق مختلف عما نحن بصده، وهو يعالج العلاقة بين "الخطاب الإلهي المطلق، والخطاب الإنساني المحدود" من خلال "الرسالة-الواسطة" التي هي "القرآن الكريم"، إلا أنني استفدت منه نصًا،

(٢٧) العمرانية (كاردِيلَانْ) / إسطنبول، ٩ نوفمبر ٢٠١١.

نقله، وأجد من اللائق أن أنقله كما هو؛ لأفقد بعد ذلك جملةً من الأسئلة المبنية عليه، ثم أحاول توليد جملة من المفاهيم والرؤى، مما أعتقد أنه سيخدم منحى التحليل الذي أنا بصدد.

تقول لندا ل دافيدوف: "حكى أن أقزام البامبوتي (Pygmies Bambuti) الذين يعيشون في الغابات الاستوائية الكثيفة في الكونجو، حيث يندر وجود المناظر البعيدة ١٠٠ قدم من أعلى شجرة إلى الأرض. في يوم من الأيام قام أحد هؤلاء الأقزام ويدعى كنجي (Kenge) برحلة مع أحد علماء الأنثروبولوجيا، ويسمى كولن تيرنبول (Colin Turnbull) إلى سهل منبسط؛ حيث رأى لأول مرة في حياته مسافة تمتد أميالاً.

واليك ما كتبه "تيرنبول" عن هذا الحديث:

نظر كنجي عبر السهول إلى مكان يوجد فيه قطع من مائة ثور ينظرون إليه من على بعد أميال. فسألني: ما نوع هذه الحشرات؟ فأخبرته أنها ثيران، وأنها في ضعف حجم ثيران الغابة المعروفة له. فضحك بصوت عال وأخبرني ألا أحكي مثل هذه الحكاية السخيفة وسألني مرة أخرى عن نوع هذه الحشرات. ثم أخذ في التحدث إلى نفسه وكأنه يبحث عن رفيق أكثر ذكاء وحاول أن يجد رابطه بين الثيران وأنواع الخنافس والنمل المألوفة لديه. وظل على هذه الحال حتى ركبنا في السيارة إلى حيث يوجد قطع الثيران. وأخذ يراقب القطيع والثيران تبدو أكبر فأكبر... ورغم شجاعته، مثله مثل كل الأقزام، إلا أنه تحرّك وجلس بجاني ودمدم قائلاً بأن هذا سحر. وأخيراً عندما تحقّق من أنها ثيران حقيقية، كفّ عن الخوف، ولكن ما كان يحيرُه هو السبب في أنها كانت تبدو صغيرة جداً،

وإذا ما كانت فعلاً صغيرة وكبرت فجأة. أو أن هناك خدعة في الأمر"^(٢٨).
على الباحث المتأني أن يقرأ النصَّ عدَّة مرَّات، ثم يكتشف العلاقات
غير القريبة، وغير المختزلة التي يحويها؛ والمطلوب هو صياغة صور
مركَّبة، لما يمكن أن يقود إلى مفاهيم "معقَّدة وبسيطة" في آن واحد؛
ذلك "أنَّ المعقَّد دائماً يكمن طيَّ البسيط، وأنَّ البسيط يولد أبداً من رحم
المعقَّد".

وسأحاول أن أقود عملية "النحت"، بطرح جملة من الأسئلة، ليست
هي بالأجدر يقيناً، لكنَّها ستكون محرِّكة للفكر، بحول الله تعالى:

• هل يندرج النصُّ ضمن "رؤية للعالم"، من نوع ما؟ غريبة مادية
موضوعية، مثلاً؟ أم أنه مجرد وصف مجردٍ علميٍّ موضوعيٍّ لا أثر لأيِّ
"رؤية كونية" فيه؟

• هل "مصدر الخبرة" هو "المشاهدة والتجربة" فقط؟ أم ثمة "مصادر
أخرى" للخبرة، متجاوزة متعالية، لا ترد في النصَّ أعلاه؟

• في أيِّ نوع من الأخطاء نصنِّف خطأ صديقنا القزم "كنجي"؟ هل هو
خطأ في الإدراك، أم في العلم، أم في المعرفة، أم في المعتقد...؟

• كيف نقوم بعملية إسقاطٍ لهذه القصة إلى مستويات أعلى، من مثل
جعل "الملحد" مثلاً، في مستوى "القزم"، واعتبار حدود إدراكه النافية
للغيب، في حجم إدراك الأقرام للمسافة؛ والذي حملة إلى مسافات أكبر،
هو الدين، ولكنه -للأسف- اعتبر ذلك من قبيل "السحر والخدعة"؟

• كيف يتَّم الربط بين ما ورد في القصة و"منظومة الرشد" بعامَّة،

^(٢٨) ندال، ل، دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة، د. سيد الطواب، وآخرين، الدار الدولية
للنشر والتوزيع، ط: ٤، ١٩٨٣، ص: ٢٨٠-٢٨١.

ومقال "الطيور الرشيدة"^(٢٩) بخاصة؟ وما هي الاستنتاجات التي نتوصل إليها حول "الوعاء والنسيج الحضاري"، دون الوقوع في فخ "المثال" أو "الخبرة الذاتية"؛ حتى لا نكون في مقام "كنجي" طبعاً؟

لا أزيد على هذه الأسئلة، والموضوع للحوار والنقاش العلميِّ الفكريِّ، من أي تخصص كان، شريطة أن يلتزم حدود المنهج، وأخلاق العلم، وهدف الارتقاء بالمعرفة إلى حدِّ الفعل والحركة؛ لا لمجرد "لوك الكلمات مثل العلك"، أو التشديق بها متعة، مثل "السلام البارد".

ولا شك أن هنالك من الخبرات والمعارف والمنطلقات... التي تكون خلفية جمهور المتلقين والمشاركين، ما يكفي لإنارة درب الفهم، وصناعة "حكم" بل "أحكام"؛ وقبل ذلك تأسيس "تصور" أو "تصورات".. مختلفة، ثرية، فاعلة... فتقتي في عقل الإنسان وفطرته حين تصفوان، تفوق كل اعتبار. غير أنني أترك بين يدي القارئ مصطلح "جغرافية الإدراك"، الذي أعني به: حدود العقل، وقدراته، وملكاته، وخبرته... في إدراك الأبعاد الجغرافية، والتاريخية، والدلالية، والمفهومية، والفيزيائية، والميتافيزيائية، والشهودية، والغيبية... الخ.

فعموم العقول تنقسم إلى حدين رئيسين، يتراوح الناس بينهما دنواً وعلواً:

- عقلٍ بدائيٍّ، مخلص إلى الأرض، تابع للهوى، قصير الامتداد؛
- وعقلٍ كريمٍ، محلّق في السماء، متجاوز للمسافات، يغرز إدراكه في الأزل، من خلال الوحي؛ ويلقي شبكته -مثل صياد ماهر- نحو

(٢٩) ينظر: مقال "الطيور الرشيدة" من هذا الكتاب.

الأبد، باعتماده الوحي؛ أبرز وصف لجغرافية الإدراك عنده، أنها تتشرب الحس المرهف، والعقل الذكي، والوجدان الصافي، والحدس الملهم، والخيال الواسع، واليقين الصادق... تحت إمرة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (يوسف: ٦٨)، و﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، و﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾ (يوسف: ٦)... الخ.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.. فاللهم أكرمنا بنور الفهم، وأخرجنا من ظلمات الوهم، وافتح علينا حكمتك، وانشر لنا من خزائن علمك... يا عزيز يا وهاب... آمين.



الطحالب الآلهة^(٣٠)

أطالع أغلب ما يقع بين يديّ من كتب ومقالات عن الزمن، فأجد البعض منها مصاعداً للرقى والتألق، وأجد البعض الآخر مستنقعات للأفكار المتخثرة الفاسدة؛ وكثيرٌ منها ما هو إلا "رجع الصدى"، جمعها أصحابها بعملية "نسخ-لصق"، التي صارت يسيرة جداً، في عالم الإعلام الآلي؛ ولقد وقعت عيني، بفضل صديق لي في الأكاديمية، على كتاب مترجم، لكاتب لم أعرفه من قبل، وهو "إدواردو غاليانو".

وحيث إنني لا أصدّق أن كلَّ ما جاء من الغرب هو سمن وعسل، إذ كثيراً ما يأتي منه السمُّ الزعاف؛ كنتُ دوماً أقرأ بعناية ونقد وتفحص؛ فجاء هذا الكتاب، هذه المرّة، معنوناً بـ "أفواه الزمان"، ليصكُّ آذاننا بصوت هو من أنكر الأصوات، إنه صوت "الصدفة والتطور والعشبة"، فقلت في نفسي: "ما الذي جاء بهذا إلى هذا السياق، سياق البحوث الزمنية؟".

وكان الجواب: "إنَّ الضلال -اليوم- لا يفتر ولا يتوانى عن افتكاك المساحات في عوالمنا وأفكارنا، فهو عمّال ومجتهد، بينما الصلاح للأسف -في وقتنا- كثير منه وقع ضحية كسل أهله، وتقاعسهم عن المهمة!".

قال غاليانو "فضَّ الله فاه" -إن صحَّت العبارة، واستجيب الدعاء-: "قبل الماقبل، في أزمنة طفولة العالم، عندما لم تكن ثمة ألوان وأصوات، كانت هي، الطحالب الزرقاء، موجودة، وكانت تطلق أوكسجيناً، فمنحت

(٣٠) العمرانية / إسطنبول، ٣ يناير ٢٠١٢.

لونا للبحر والسماء. وفي يوم طيب، في يوم استغرق ملايين السنين، خطر لطحالب زرقاء كثيرة أن تتحول إلى طحالب خضراء. وراحت الطحالب الخضراء تولّد، قليلاً قليلاً، إشنيات، فطورا، وتولّد كلّ الألوان والأصوات التي أتت، أتينا، فيما بعد، لنملاً البحر والبر صخباً... ومن العالم القديم الذي كان، تنظر هذه الطحالب إلى العالم الذي صار، لا أحد يعرف رأيها.

حقاً، إنّ من الناس مَنْ يُنسب إلى العلم، ويؤلّف كُتُباً وأسفاراً، لا يحترم نفسه، ولا يعرف قدره؛ فيظن -وهو الجاهل- أنه يعلم شيئاً، ثم يُلقي به حنظلاً وزقوفاً، فتتلفه الفراخ الجائعة، وتصنع به حلولاً ودعايات؛ ثم تسوّقه إلينا، كما هو، بلا نقد ولا تمحيص، كأنما جاء من الملاء الأعلى؛ فإذا ما واثت الفرصة، سمعتهم يقولون: "الغرب هو العلم، هو الحضارة، هو الصواب... وغيره، كلّ، بلا استثناء، هو التخلف، والهمجية، والجاهلية..." وكثير منهم يتجاوز حدّه فيلقي باللائمة على "الوحي"، وعلى "رسول الوحي"، بل حتى على "ربّ الوحي" تعالى علواً كبيراً.

وها نحن اليوم أمام إله جديد، بل آلهة جديدة؛ بعد أن كان الإله المُشار إليه بالبنان، هو العلم والعلموية، والمادة والمادية... فجاء هذا "الإله: هو الخالق -في اعتقادهم- وهو البارئ، المصور، المبدع، القديم"!.. تحت مسمّى "الطحالب"! ذلك أنها هي التي أوجدت ذاتها، وهي التي منحت الزرقة للكون، وهي التي "خطر" لها أن تتحول إلى طحالب خضراء، فعمدت الطحالب الخضراء إلى الخلق، لتخلق الألوان والأصوات، والنباتات والحيوانات -بل وحتى البشر!- بعناية فائقة، وقدرة عجيبة.

وهي اليوم تراقب من عليّ، وترى المخلوقات ولا تُرى؟! لكن، أين الدليل، وماذا يعني إلقاء الكلام على عواهنه بلا حجة؟ وأين العلم، وأخلاق العلم، والصدق، والأمانة؟! كل ذلك يُرمى في الزبالة، لأجل "داروين" و"نيتشه" و"ميكافيلي" و"فرويد"... و"غاليانو"، و"هاوكينغ"... ولا نلومهم، فهذا مذهبهم، وذاك اختيارهم، وهم صرحاء فيه إلى حد الصلف والوقاحة، ولهم عند الله جزاء المثل... وإنما العجب في شباب -وهم قلة والله الحمد- من بني جلدتنا، ومن فتيان مدارسنا، ومن أطفال قريتنا ومدينتنا ووطننا... صاروا يرددون هذه السخافات، ويؤمنون بها، ويفصلون في حياتهم بين "عبادة فردية"، هم لا يقصرون فيها ظاهراً؛ و"عبادة حضارية"، لا شأن لهم بها بتاتاً. ألا ما أقبح الجهل، وما أذلل الذل: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

أما نحن، فنرفع التحدي، ونقف -بعون الله- في المِرصاد، مهما كلفنا ذلك من غالٍ ونفيس، ونهيب بكل مسلم أن يجاهد ويجتهد في حقل العلم والمعرفة، كيما نرى اليوم الذي تشرق فيه شمس الإسلام على العالم أجمع، لا على الغرب لوحده: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * بِنُصْرِ اللَّهِ (الروم: ٤-٥)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه: ١٣٢)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٢).



فَعَلَهَا الصَّغَارُ! ^(٣١)

خاطرة، على إثر نتائج شهادة التعليم الابتدائي للمدارس
العلمية عبر الوطن:

لو رأيته.. تعلق وجهه ابتسامة رقيقة...

لو أبصرتها.. تحكي ناصيتها معاني لطيفة...

عيناها تتلألآن إشراقاً ملائكيّاً؛

يطيران فرحاً، ويلهجان حمداً...

لو رأيته... لو أبصرتها...

* * *

إنه هو؛ ابنك وابني...

إنها هي؛ بنتك، وابنتي...

لکم شحذنا همّتهما لنيل المعالي،

ولکم محضنا لهما النصح لبلوغ العوالي...

بنبرة حادة، قالت الأم:

"عليكما أن تنجحا، وتثبرا دربنا..."

بصوت ترسّمه بحّة، قال الأب:

"كلّ أُملي فيكما، فلا تخيّبا ظني..."

^(٣١) ١٠ يونيو ٢٠١١.

بعباراتٍ مننظمةٍ تربوية، قال المعلم والمعلمة:
"اليوم يومكما، واليوم يومنا، فليكن يوماً سعيداً..."

* * *

الجميع قال ما قال بلسانه، ثم رحل...
وحده دخل صف الامتحان...
وحدها استقبلت ورقة السؤال...
وحدهما تشجعا، وحملا القلم،
ثم دعيا، وأقدما على الجواب...
فأجابا...

* * *

قلبه الرفيق كان يرقص كالبن دول، من شدة الخوف...
قلبها الرقيق كان يدق كالطبل، من فرط الرجا...
نعم، قالوا له، وأفضوا إليها...
صدقوا إذ قالوا، ووفقوا إذ أفضوا:
"ليست نتيجة الامتحان بداية العالم،
ولا هي نهاية الدنيا؛
إنما هي مرحلة وكفى!"

* * *

فهم الفتى واستوعب...

حفظت الفتاة وأدركت... ولكن،
أنى له أن يسمح لنفسه بالفشل أو أن الاختبار،
وهو يأمل أن يلحق -يومًا- بركب الكبار؟!
أنى لها أن تهان، وهي تردّد دوماً، في مادة التعبير:
"في يوم الامتحان، يكرم المرء أو يهان؟!"
أنى لهما أن يتحملاً دمة حرّى سخيّة،
تسيح على وجنتي الأمّ الحنون؛
لأنهما لم ينيرا دربها؟!
أنى لهما أن يُبصرا الأبّ وقد جفّت مآقيه أسى؛
لأنهما خيّبا ظنه؟!
أنى لهما أن يغيبا مع الغائبين،
ويدفعا إلى الحزن المعلّّات والمعلّّمين؟!
أنى لهما ذلك؟

* * *

أمّا اليوم، فأردّها مدوِّية:
"فعلها الصغار، وتحدّونا نحن الكبار...
طوبى لهم ثم طوبى..
فلتسمحي لنفسك أمّي،
ولتغالب عزّتك أبي،
ولتتخّنيا شكراً لله، ولتسجدا حمداً،

ولتنتُرا على وجنتيهما قُبلة تملأ الدنيا حبًّا وحبورًا...
ثم، لِتفتَح ذراعيك أخي المعلم، وأختي الملعِمة، عريضًا...
ولتعانقا هذا الشبل، وتلكم "الشيلة"،
بحرارة لا متناهية...

* * *

أمِّي أبي، معلِّمي معلِّمتي...
كما الطفل الوليد، أرمُوا بنا،
بكلِّ طاقتكم، إلى السما...
عاليًا... عاليًا...
فإنما خُلِقنا للمعالي...
آمالنا الجوزاء... وهمَّتْنا الثريا،
هنالك تسكن أرواحنا،
فضمُّونا،
وعانقونا،
وعلِّمونا،
وادعوا لنا...
فهذا دعاؤنا، نحن الأطفال:

دعاء الأطفال، للشاعر محمد إقبال

أدعو وتتوالى الأمانى على شفتاي،
ليت حياتي تصبح كالشمعة.
فتبدد بضيائي ظلماتُ الدنيا،

ويلمع كل مكان باحترافي.
ويصبح وجودي زينة لوطني،
كما يكون الزهر زينة الحديقة.
ليت حياتي تصبح كالفراشة،
وليت هناك مودة بيني وبين العلم.
ولا يكون همّي وشُغلي غير حماية الفقراء،
ومحبة المنكوبين والضعفاء.
يا رب، قني شر الذنوب،
واهديني صراطك المستقيم...



فلسنا بطير مهيض الجناح^(٣٢)

الطائر المهيض الجناح، هو الطائر الضعيف، الفاقد للقوة والقدرة؛ فكَم من إنسان فوق الأرض، وكم من مسلم مسلوب العرض، هم اليوم أشباه هذا الطائر المسكين.. إنهم يعرفون ويدركون أنهم أذلاء ضعفاء عاجزون، وهم باللسان وبالقلم، بالمقال وبالقصيد، لطالما عبّروا عن هذه الحال الآسفة، إلّا أنهم في الفعل والحركة، في المخطّط والأسباب، في المسالك والوسائل... في كلّ ذلك هم أعجز من العجز ذاته. الواحد منهم عبد مملوك، ﴿أَبْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ (النحل: ٧٦).

لكن، رويداً.. ثمة في مناكب هذا البلد الحزين، تقف قاماتٌ شامخة من الخيرين، بعضهم في شمال البلاد، وآخرون في الجنوب، يقفون وقفة الرجل الواحد، الشجاع المقدام، ليقولوا بصوت متناغم: "لا، وألف لا". قالوها، لا بالكلام فقط، لكن بالحراك والحركة، بالأعمال والمشاريع، بالصبر والمصابرة، بالعلم والمعرفة... فأصبح أخي أذنيك لتسمع دويّ "لائهم" يملأ الربوع أملا وحبورا، ولا تكن في طريق الخير من الغافلين، ولا عن شعاع الحياة من المغمضين.

من بين هؤلاء، نسجّل بافتخار ثلّة من الشباب الربانيّ الإيماني، الأحمدى المحمدي، القرآني الحضاري.. جاؤوا من كلّ فجٍ عميق، ليشهدوا نفحات "أيام الرشد" في معهد المناهج؛ فكانوا الغيث وكثّا

^(٣٢) معهد المناهج / الجزائر، ١٧ يوليو ٢٠١١.

الأرض، وكانوا الطاقة وكنا الوعاء، وكانوا المستقبل فكُنّا الحاضر؛ هم بحقّ فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدًى، يردّدون مطلع كلّ شمس، الدعاء المشهور المأثور: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ١٠)... فالله -ياذن الله- مستجيبٌ أدعيتهم الشجيرة، ومُنزلهم المنازل العليّة، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين... ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

اليوم، وقد خطّت الحضارة، ياذن الله، أولى خطواتها من هذا الممرّ، يحقُّ بالشباب الراشد أن يُنشد بصوت نافذ، وبنغمة أخاذة، مع الشاعر الفحل، بيته:

فلسنا بطيرٍ مهَيض الجناح ولن نُستذلَّ ولن نُستباح
وهي لكلِّ مَنْ رام إذلالاً لوطننا وأهلنا وديننا وتاريخنا وحضارتنا
وذاتنا... لكلِّ هؤلاء هي رسالةٌ صريحة واضحة، لا تقبل الجدل ولا
المراء، و"إنَّ غدا لناظره لقريب"... لكن -فقط- المهمُّ أن يدوم هؤلاء
الأبطال على العهد، ويصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله... فهم بحول
الله مفلحون.. وهم بفضل الله راشدون، مرشدون...
آمين... آمين... آمين.



النصرُآت... النصرُآت^(٣٣)

أحبّتي، إخواني، أصدقائي... يا مَنْ عبّدتُم بداياتِ الطريق، أوان المنعرجات والندبات... ويا مَنْ أشعلتم شموع الفعل، زمن الأحلام المدلهّمات... ويا مَنْ وقفتم كالجبال، للعواصف تصفع وجوهكم من الداخل قبل الخارج... يا مَنْ فيكم بذرةٌ من تفاؤل، ومعكم حفنةٌ من أمل... لا تهنوا ولا تحزنوا... ولا تفرحوا ولا تمرحوا... النصرُآت... النصرُآت... إنّه آت من بعيد، ولكنّ أكثر الناس لا يفقهون.

قال المتنبه الولهان: وماذا عن الساسة؟

قلت: دعوهم وشأنهم، اتركوهم يرتاحون على كراسيهم... مَنْ صدق منهم فكونوا له، وليكن لكم... ومن خان منهم، فولّوا وجوهكم عنه، شفقة لا حقداً.

قال: وماذا عن العلماء؟

قلت: هم المنارات، لكن لا تنتظروا من منارة واحدة أن تضيء لكم العالم كله، وفي كلّ زمان... وإلّا أبقى الواحدُ الخلاق الشمس في الأفق، لا تختفي إلى يوم الدين.

سألني الصاحي، وهو يرسم لوحة من الحيرة على جبينه: "ماذا عن الدعاوى الجديدة؟".

قلت: أمرها إلى الله... فإن صدقت وفّقت، وإن كذبت عذّبت... وليس من شأننا التدخل في الحكمة الإلهية، ولا من صلاحيتنا التوقيع باسم

(٣٣) معهد المناهج / الجزائر، ٢٨ يناير ٢٠١٠.

العزیز الوهاب... فعلَ بعضَ الناس، بل ديدَنَ كثيرَ من المدَّعين على الناس، ممَّن نعرفهم في لحن القول، وهم أقرب إلينا من خيط العنكبوت. قال، وقد انضمَّ إليه المئاتُ من التلاميذ، وطلبةُ العلم، والمحبين: نحن جنودك، فيما تأمرنا؟

قلت: لستُ قائدًا، ولا إمامًا، ولا زعيمًا... أنا حبةٌ ذرٍّ في الكون الفسيح... بكم ومعكم نبني الممكن، ونحاكي المستحيل.... فابحثوا عن إمام جديد.

قالوا: لا إمام لنا.

بكيت على حالهم، وتذكرت أنني كذلك لا إمام لي... ثم استغفرت الودود الحليم، فقلت، وأنا معتقد ومؤمن: ما دام كلام الله نورنا، فلا حرج... وما دام المصطفى قدوتنا، فلا حرج.... وما دام العلماء يأخذون بأيدينا، فلا حرج...

ثم تابعتُ حديثي، بهدوء واطمئنان: إمامي اليوم، ومُرشدي اليوم، وآلامي وآمالي... وأفكاري وأعمالي... على نهج القرآن الكريم، وسنة النبي المبين، على آثار الفكر والمفكرين... لا على شاكلة المدعين المزورين... المغتصبين للمعنى، الظالمين للحضارة... الحاملين الناس على الوهم، والحالين بعهد جديد على إيقاع "إمامة الجاهل"، أو على خطي "أنت إمام نفسك".

قال أحدهم: وإمامة الفقه، ماذا تفعل بها؟

قلت: لكل إنسان مذهب يتمذهب به، وإنني أرى المذهبية الفقهية قد انحسرت في الشعائر، فلا أتكر لها ولا أنفيها... غير أنَّ الفكرَ هو مذهبي، ومالك بن نبي، وعلي عزّت بيحوفيتش، ومحمد مهاتير، وعمر النامي،

وعبد الوهاب المسيري، وفتح الله كولن... هم أيمّتي... بهذا ألقى الله،
ولا أبالي...

قال أوسطهم سنًا وفهمًا: أما تخشى المؤسسة التقليدية أن تفصيك من
القائمة كما أفصت من قبلك؟

قلت: لا أخشى إلا الله وحده، ولا أعتبر تزكيتها تزكية، ولا رفضها
رفضًا، ولا قبولها قبولًا، ولا حكمها حكمًا... ما لم تُجب على أسئلة
العصر المحيّر، وما لم تكن معنا على صفٍّ واحد في وجه التخلف،
والاستعمار، والفقر والفرقة والظلم... فأيمّتي -في الفكر والفعل، بحمد
الله- أسود على الوضعية، جبال أمام الإمبريالية... قادة للفكر الحر، ورواد
للتغيير والرشد... أحدثوا الفرق في العالمين، ورجحوا الكفة للخير على
الشر، فأغاضوا المشركين...

التفتت إلى الحضور، فسألتهن: وماذا عن أيمّتكم القدامى؟

عاد إليّ الجواب خاسئًا حسيّرًا ذليلاً...

فقلت: إذن، لا جواب؟!!

أطلق البلبل تغريده... وصفّق النسيم على أوراق البنفسج... فأذن
المؤذن معلنًا ساعة الحقيقة... لمن أراد الحقيقة: "حي على الفلاح... حي
على الفلاح... النصر آت... النصر آت...".



هل حان الأوان؟^(٣٤)

هل هو الشوق القاتل يُحرق ما تبقى من رماد قلب حزين؟
هل حان وقت الأذان للإيدان بميلاد فجر جديد؟
هل مياه مرمرية جديدة بتبريد اللواهج، ولو كان بعضها لبعض ظهيراً؟
أم أن بلاد "المالو" أقدر على فضّ نتيجة المقابلة لصالحها؟
هناك.. على طاولة المرمز، ترّين مقامه حبات الثلج، في شتاء تأخر
نزوله احتجاجاً على القلوب الخائرات... في بلدة أقرب إلى بلاد الغابرين.
هنالك من عمّان الأردن، بما فيها وبمن عليها...
من هنالك فكّر صاحبنا وما قدّر... أو أنه قدّر وما فكّر... فمرحباً بما
قدّر ومرحباً بما فكّر.
من هنالك.. نادى متحدّياً أغوار الحزن الدفين: أن يا خيل النصر
اقتربي... ويا جيش الفاتح -ويحك- تحرك؛ وما تحرك الأحياء فالأوان
أوان أرباب الأحداث... رجاء تحركوا.
هل تُراني ألاحق الأشباح من أقاصي الدنيا إلى أدانيها؟ كالمجنون
أنقّب عن الصدق في أرض جُرز يباب؟
ومن يدري، لعلّ الخضرة -يوماً ما- تنتفض من جوف صحراء "عين
صالح" الرملية؟
من يدري، لعلّ بين جميع القلوب قلبٌ يخفق بالأسى، ويتحرك
للوحد... هائماً على رأسه، وما استطاع صرفاً ولا نصراً؟

^(٣٤) عمان / الأردن، ٢٠ مارس ٢٠١٠.

من يدري؟

لا مكان للألم، ولا زمان لليأس.

قطرة من رذاذ الفلوات قد تُحيي أمةً مواتا قتلها العار، وأرداها الشنار.

من يدري؟

ليس الشأن في الكثرة، ولا الشأن في القدرة... وإنما الشأن في التوفيق والقبول.

هل تراني أكون ذلكم العصفور المبلى، الذي يصارع الصقور والنسور..
لوحده.. بلا هودة.. غير مكثرة أدموا جناحية، أما أغاروا صدره.. دَمَا..
لعل شيئاً من ذلك كائن، أو بعضاً من أولئك آت... ولكن، يقيناً ثمة
تغيّر... ثمة لحظة تحوّل... لحظة لا أصفها لئلاً أذهب جلالها، ولئلاً
أغتصب جمالها...

نعم حان الأوان!



من آخر الفرسان إلى عودة الفرسان^(٣٥)

آخر الفرسان

رواية -بل حقيقة- حملنا فيها الأنصاري إلى "بازل"، حيث أوى بديع الزمان النورسي، فكان فيها رفيقَ الخلوات وسيدَ الجلوات... "بازل" التي فتحت له قلبها، ففتح الله عليه -وعليها- نورًا من نور كلام الله، وكتب للناس "رسائل النور"، يُحيي بها رميم موتى القلوب، ويكتب للناس سيرة الغد وخطَّ المستقبل.

"بازل" هذه التي شهدت نطق الحكيم بحكمه على الزمان والمكان... وعرفت كيف قيّم الرجلُ الرّبّاني العصر والمصر... وكيف كان "سدًّا" مثل سدّ ذي القرنين في وجه الإلحاد والكفر.

لكن الناس لم يصبروا، فقد كان وهج "بديع الزمان" أشدَّ لظى ممّا يتحمّله أبناء هذا الزمان... وأنى لهم أن يصبروا، وما صبر موسى عليه السلام، وقد عرف الظواهر وذهل عن الأسباب.. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف: ٦٨).

في "مقام الرحيل" غنّى "سعيد الجديد" آخرَ لحن من ألحان الزمن الجديد... لحنٍ لم تسمعه الآذان إلّا بعد عقود، ولم تدرك الفهوم كنهه إلّا آخر العهود....

يقول -طيب الله ثراه- في "مقام الرحيل": "أستودعكم الله إخواني... إنني راحل".

(٣٥) عمان / الأردن، ٢٣ يناير ٢٠١٠.

لم يصبر الطلبة والعامّة، ولا المحبّون ولا أهل الجنون... فاحتجّوا،
وكانهم يعيدون للكون قصّة موت المصطفى، وقد انتفض الفاروق مُشهرًا
سيفه، وهو يقول: "من قال إنّ محمّدًا ﷺ قد مات قتلته بسيفي هذا"... فما
صبر عمر رضي الله عنه، وهو الجبل الأشم، فأنى لهؤلاء أن يصبروا؟!

عرف بديع الزمان ما سيؤول إليه من بعده، فنصحهم نُصح نبي
لقومه... التفت إلى طلابه قائلاً: "فالصبر الصبر على آفات الزمان...
فلربّما تلبدت السماء بالغيوم أيّامًا، لكن لا سلطان للظلام بعد اليوم...
وانتظروا قليلاً، فوارث السرّ سيظهر فيكم، لقد خاطبته برسائلي منذ زمان.
كنتُ في الماضي، وكان هو في المستقبل، وإنما نحن روح واحد! وإنّي
لأراه قادمًا من هنالك، ثم مدّ يده وأشار إلى الأفق... التفتت الأطياف إلى
جهة الإشارة فرأوا عجبًا!".

سكتتُ، فأغلقتُ دفترِي، وأطفأتُ شاشتي... ودخلتُ في تأمل وتفكّر
بعيد... بعيد... بعيد...

أيقظني المنتبه المصغي، فقال: ويحك يا صاح... هذا "آخر الفرسان"،
فماذا عن "عودة الفرسان"؟

قلت: هنا حدّ البيان.. حان للرحيل الأوان.. فانتظر العودة بشوق.. إنها
قادمة، أراها رأي العين.. انظرها معي...

عودة الفرسان

عودة الفرسان حقّ.. عودة الفرسان صدقٌ... قد يتفاحس عنها المذنبون،
وقد يتردّد في شأنها الغافلون، وقد يشكّ في إمكانها المنظرون... لكنني
أراها رأي العين، ماثلةً أمامي بهامتها وقامتها، أراها حقيقة ناصعةً لاشية فيها.

أتمثل "عودة الفرسان" عروساً تهزأ من أنصاف الرجال، وتقول بملء فيها: "كونوا رجالاً أكن لكم، وإلا فلا كنتم ولا كنّا"... ولا غرو، فإن عدل الله سيسوق لي من يملأ دنيائي "رجولة"، ويعمر آفاقي "فحولة"... فلا تمنوا عليّ -اليوم- إسلامكم".

"آخر الفرسان" وحيدها بديع الزمان، و"عودة الفرسان" إمامها فتح الله، وقائدوها "كولن"... أما جنودها فشباب ربّاني المقامات، قرآنيّ النبرات، محمديّ النفحات.

فرسان العودة في "عودة الفرسان" هم ورثة الأرض، الذين صنعهم فتح الله، رجل الأسرار، على بصيرة، وقال عنهم ضارعاً إلى الله في جوف الليل: "مجانين أريد، حفنة من المجانين... يثرون على كلّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممّن نسبوا إلى خفة العقل لشدة حرصهم على دينهم وتعلّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدّحهم سيد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكرون بملذّات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصبٍ أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا ربّ، أتضرّع إليك.. خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعط كل سائل مطلبه، أمّا أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربّ، يا ربّ" (٣٦).

سأل فتح الله عن هؤلاء الأرض والسماء، السمك والطير، الإنس والجنّ... علّه يجدهم، فيملأ بهم العالم عدلاً بعدما ضجّ جوراً، وينشر

(٣٦) مجلة "حراء"، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩).

بهم السعادة -في دنيانا- حبورًا... فنادى بأعلى صوته لعلَّ الأذان تصخ،
أو لعلَّ القلوب تلين، فقال: "الدنيا تدور وتدور... وكلُّما دارت، فإنها
تؤوب إلى فلَكها الأصليّ. فيا ترى هل ورثة الأرض الحقيقيّون جاهزون
لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، وسلبه الآخرون؟! "^(٣٧).

قاطعني الهائم في أفكاره، وهو يتمتم ويرسل خيوط عينيه شظايا
شظايا، فقال: "لكن، ما قصدك يا صاح، من كلّ هذا الرسم؟ أما بُحِتَ
بقرارة نفسك؟ هلاً أرحتنا من الإيماءات والإشارات؟".

ثم صعد زفرة حتى بلغت مدى السماء، وقال: "أمّا الفارس العائد،
فتح الله، فقد عرفناه في قوله وفعله، في فكره وأثره... عرفناه وما عرفنا له
مثيلاً ولا ندّاً... ومن لم يعرفه كفّته هذه الكلمات ليرى النور يشعُّ على
الكون من جنباتها، فيسط الخير في كلّ ذات... أمّا أنت يا ولهان، فما
شأنك، ما بالك، وما قصدك؟... أما أفصحت؟"

قلت: "سأخلد إلى غموضي ما لم أهد إلى آخر الفرسان، أجلسُ إليه
ليلقني حرفاً من نوره، أو يعلمني ممّا علّم رشدًا... حرفاً ونوراً ورشدًا...
نوراً ورشدًا... رشدًا".

وأطلقت تنهيدة أنست زفرائه، وغطت على آهاته: "نعم، سأحتمي
بصمتي، ما دامت ملامح "عودة الفرسان" لم ترتسم على شفاه الوجود
كلّية، ولم تتحوّل -هذي الملامح- قوس قزح ينشر الأكوان عدلاً،
وصدقاً، ونصرة، وتمكينًا...".

انتهى وقت الكلام، فنشر الصمت أريجَه على أكمام الفل والياسمين...

^(٣٧) ونحن نقيم صرح الرح، فتح الله كولن، ص: ١٣.

وهمَّ صاحبي أن يسأل، لكنَّ غفوة من نوم هنيئٍ أَلَمَّتْ به... فقام الليل
الساکن مقامه، سائلاً: "ماذا بعد عودة الفرسان؟"
قلت: "بعد الليل يأتي الصبح، وبعد العودة يكون النصر... فألى ذلكم
العهد الجميل، أستودعكم الله... والسلام... إلى لقاءٍ جديد... بعد أمد
غير بعيد".



الإمام البوصيري يحتفي بحراء^(٣٨)

إذا كان الغار في لغة الجيولوجيين مجرد فجوة في جبل؛ فإنه في تاريخ البشرية لحظة تحوُّل، ليس لها مثل في الأوَّلين ولا في الآخرين. إنَّ حراء هو نقطة التقاء بين السماء والأرض، بين الخالق والمخلوق، بين القادر والعاجز، بين العالم والجاهل؛ فمن جهة يسمو الربُّ الأكرم، العليمُ الحكيم؛ ومن جهة يقف الإنسان الحائر، ممثلاً في شخص الرسول الكريم ﷺ؛ الذي امتنَّ عليه ربه فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿(الضحى: ٥-٨).

وبين هذا وذاك شُرف جبريل عليه السلام بحمل رسالة الله إلى العباد، قال سبحانه في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

* * *

أمَّا مجلة "حراء" فهي، في عرف الورَّاقين والناشرين والقراء العاديين، لا تعدو أن تكون ورقاً وحبراً، وصورةً ولوناً، ومقالاتٍ وشعراً... مثلها كمثل الملايين من المجلَّات التي تصدر في العالم، بجميع لغات البشر. غير أنَّ "حراء"، عند العارفين المنصفين الموقنين، هي لحظة فارقة في نهضة الأمة الإسلامية اليوم؛ وهي نقطة تحوُّل إلى العربية، لغة القرآن والحضارة الإسلامية؛ ذلك أنها تزdan باللسان العربي المبين، وتزدهي

(٣٨) معهد المناهج / الجزائر، ٢٣ شوال ١٤٣٢ هـ / ٢٣ سبتمبر ٢٠١١ م.

بالفكر الإسلامي المتين.

• إِنَّ "حراء المجلّة" لهي قبسٌ من نور "حراء الغار"؛ بل هي فيضٌ من فيوضات الوحي الحكيم، المنزّل على النبي الكريم ﷺ.

• و"حراء" شجرة طوبى من أشجار جنّة العلم والعمل، والفكر والفعل... سأل نبي الله عيسى عليه السلام ربه: "يا ربّ، وما طوبى؟"، قال جلّ من قائل: "غرسُ شجرةٍ، أنا غرسها بيدي!".

• و"حراء" أنشودة رمزية، سبك أنغامها الأستاذ فتح الله، الرجل الخريّت الرائد، وقد أنشد لأجل ذلك، بعدما قارب وسدّد:

إذا الرؤوس خوت... والأرواح ضوت... والفضاء الواسع ضنّ
بالكثير والقليل!

وإذا الآذان صُكّت... وتأذّت... من ضجيج الصوت... وتأفّه القول...
وخليط كلّ ناعق وصائح!

وصفاء الروح... كدراً مغبرّاً غدا... غيّرته الآثام... وكدّرتُه الذنوب...
وها هي الجموع... من همّ ما تجد... أكفّ الصراعة ترفع... وتبتهل
وتتضرّع...!

فيا ربّ افتح الأبواب... وأنزل الرحمات... وخذ بيدي.

أنا الآتي إليك من بعيد المّهّاجر... وقصّي المسافات! (٣٩)

* * *

سادتي، هذه "حراء" التي حلّت اليوم ضيفاً على جزائرنا، ونال "معهد المناهج" من تلكم الزيارة المباركة حظّ عظيم؛ ولقد والله أورك الزمان

(٣٩) ديوان "ريشة العزف المشقوقة" (شعر "راجع أنا")، فتح الله كولن:

<http://ar.fgulen.com/content/view/full/491/41/>

بمقدمها الميمون، وطاب المكان، وزكا الإنسان... فمرحى ثم مرحى،
وإنا لا نملك إلا أن نقول لكم جميعاً: "حللتم أهلاً، ونزلتم سهلاً"، فأنتم
أهل الدار، ونحن الضيوف؛ وأنتم أهل الفضل والكرم، ونحن المعترفون
بفضلكم وكرمكم... سادتي.

أخيراً، لا نجد أفضل من الإمام البوصيري الجزائري الدلسي بلبلاً
شادياً، يقوم مقامنا، ثم يُشَدُّ عن غارٍ لا يقلُّ أهمية وقدراً من "غار حراء"،
هو أكيداً "غار ثور" الأشم، وإنا لندرجو أن تُسقى مجلة "حراء" من معانيه
وابلاً، فإن لم يكن وابلاً فطل... قال، لا فضُّ فوه:

وما حوى الغار من خيرٍ ومن كَرَمٍ وكلُّ طَرْفٍ مِنَ الكفارِ عنه عَمِي
فالصدق في الغارِ والصدق لم يَرَمَا وهُم يقولون ما بالغارِ من أَرَمِ
ظَنُّوا الحمامةَ وظَنُّوا العنكبوتَ على خيرِ البريةِ لم تَسْجُ ولم تَحُمِ
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وعن عالٍ مِنَ الأُطَمِ
داعينَ اللَّهَ أن يقي مجلتنا الفيحاء كلَّ شرٍّ، ويسوق إليها كلَّ خيرٍ،
ويجمعنا في رحمته، ويبرم لأمتنا أمراً رشداً.... آمين.
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



وحيد الدين خان..

"ما هي الحكمة؟ إنه أكبر سؤال في حياتي" (٤٠)

كان صرح "الأكاديمية"، ومجلة "حراء"، بشافليجا / تركيا، مسرحاً لزيارات وفود عديدة، من مختلف بلاد العالم، كعاداتها؛ ولكن وتيرة الزيارات تكاثفت هذه الأيام، بمناسبة انعقاد الملتقى العالمي حول "السراج النبوي".

ولقد زار يوم الأربعاء ٠٢ مايو ٢٠١٢؛ وفد من "الهند"، وآخر من "السودان"، وثالث من "الكويت"، ومن "الأردن"... وغيرها، وأخص جلسة عمل جمعتنا بالعلامة "وحيد الدين خان" (١)؛ صاحب كتاب "الإسلام يتحدّى"، و"الدين في مواجهة العلم"، وله من المؤلفات ما يزيد عن مائتي كتاب، منها تفسير للقرآن الكريم، وهو الآن يشرف على مركز "السلام العالمي"، بـ"دلهي الجديدة"؛ ويشرف على مركز "خدمة القرآن الكريم"، كذلك.

زارنا العلامة، وهو يطل على المائة عام، ليس بينه وبينها سوى ثلاث سنوات؛ وكان في رفقته كل من الدكتور "زبير أحمد الفاروقي"، جامعة "الملية الإسلامية"؛ و"محمد زكوان الندوي"، مسؤول في مركز "السلام"،

(٤٠) بمناسبة مؤتمر السراج النبوي، الأكاديمية / إسطنبول، ٢ مايو ٢٠١٢.

(٤١) سمعت اسم "وحيد الدين خان" أول مرة من قبل أستاذي الشيخ عبد الله كونطابلي، رحمه الله تعالى، وقد نصحننا بمطالعة كتبه؛ ثم طالعت ما وقع بين يدي من أعماله، وفي شهر رمضان قبل ثلاث سنوات، درّست كتابه "الإسلام يتحدّى" في حلقٍ رمضانية بمسجد العالية، ثم بمسجد المنار، الجزائر العاصمة.

وكذا "فريدة هانم بنت وحيد الدين"، وهي أستاذة بجامعة "الملية"،
ومترجمة لكتب والدها إلى اللغة الإنجليزية.

رافق الوفد الهندي، أستاذ أصله "هندوسي"، أعلن إسلامه قبل مدة،
وقد تلا أمامنا الشهادتين، وهو متأثر بالعلامة "وحيد الدين" وبأفكاره،
وبروح "السلام" التي ينافح عنها؛ وكأننا نستذكر روح "غاندي" المسالمة؛
لكنها اليوم جاءت بعنوان "الإسلام".

كما كان حول دائرة الحوار، التي دامت ثلاث ساعات، في حلقتين؛
كل من الدكاترة: "دفع الله محمود"، و"الفتاح الشيخ يوسف"، و"عبد
القادر أحمد يوسف خورشيد"، و"طارق علي"؛ وهم أساتذة في "جامعة
الجزيرة" بالسودان، وسياسيون برلمانيون.

عرّف "وحيد الدين" نفسه بأنه "الصوفي الداعية"^(٤٢)، وقال: إنَّ أهمَّ
سؤال شغل فكري، وتشبث بذهني لعدة عقود، بل طول حياتي؛ هو: "ما
هي الحكمة"؟

ثم قال: ولقد وجدت أنَّ "القرآن" يجيب على هذا السؤال بروية
وعمق، لا مثيل لهما في أي كتاب آخر، ذلك أنه يقر بأنَّ الحياة فيها
الشقاء، والمشاكل، ولقد عبر عن ذلك بلفظ "الكبد": ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:٤)... ولا يخلو زمن ولا عصر من التعب والضنك؛ حتى
زمن النبي محمد ﷺ، كانت ثمة مشاكل ومعاناة لا حدَّ لها في "مكة
المكرمة".

^(٤٢) كانت مداخلته باللغة الإنجليزية، وهو يؤلف بها وبالأردية؛ ولقد تُرجم له إلى العربية
أربعون عنواناً؛ منها تفسيره للقرآن الكريم، المعنون بالتذكير القويم في تفسير القرآن
الحكيم.

ولقد فهم "وحيد الدين" من قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦)، أنَّ العسر دوما ملازم لليسر، لا فكاك بينهما؛ إذ لم يقل تعالى: "إن بعد العسر يسراً"، وإنما "مع"؛ و"المعية" تعني "الملازمة".

ولقد كانت مشاكل "مكة" متمثلة في "الأصنام"، وفي الجهل والجهالة. هنا نجد الرسول ﷺ يعتبر زوّار "مكة" سوّاحاً، يعتبرهم هو "أهلاً" لأن يدعوهم، ولم يلتفت إلى وجود الأصنام، فلم يحاربها، ولم يسبّها، ولم يثر عليها؛ وإنما صدح بدعوته جنباً إلى جنب مع نداء المشركين ودعواتهم، وهذا التصرف منه ﷺ هو عين "الحكمة"، وهو تفسير بديع للحكمة، عملياً، لا قولياً فقط.

وكان نتيجة لتلك الحكمة أن اعتنق العرب الإسلام، ثم انتشر عبر العالم، بهذه الروح، لا بروح المواجهة.

من هنا، التفت العلامة "وحيد الدين خان" إلى تركيا اليوم، وقال: "إنها محط سياح كثيرين، ففي سنة ٢٠١١ مثلاً، زارها من السياح حوالي ٣١ مليوناً، من جميع بقاع العالم؛ فالتاريخ إذن يعيد نفسه، وهؤلاء رغم كل الأصنام الجديدة، هم محلّ دعوة، فينبغي علينا بالحكمة أن نستغل الفرصة، وندعوهم للخير وللإيمان".

غير أنَّ العلامة وحيد الدين، فيما لاحظتُ لم يكن يعرف جهود الخدمة في هذا الشأن، وليس له تصور عن عمل "وقف الصحفيين والكتاب"، وكذا المدارس المنتشرة في أكثر من مائة وستين دولة؛ ولذا فطرحة ممتاز، لو أضيف له تقدير وتقويم للمجهود الفعلي العملي الراشد.

ثم عرج "وحيد الدين" إلى ذكر كتاب عنوانه "الأفاعي الثلاثة"، لكتاب عربي، وقال إنَّ القرآن الكريم هو معجزتنا، وهو ليس كتاباً للتقديس

فقط، لكنه جاء ليواجه مشكلات ونكبات العالم، بل جاء ليلتهم الأفاعي الوهمية؛ فلا خوف إذن؛ فكما أن موسى عليه السلام، خاف أول أمره، ثم قال له الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ (طه: ٦٩)؛ كذلك علينا نحن أن نلقي بحجج القرآن الكريم، إذ إعجازه في معناه لا في كلماته وحروفه؛ ولا يجوز أن نتردد أو نخاف؛ ولدينا ثقة في الله تعالى أنه سيلتهم كل الأوهام والخرافات، وسيحل كل مشاكل العالم، بحول الله تعالى، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

وقال العلامة وحيد الدين: "إن القرآن كتاب ثورة - بكل المعايير - على المؤلف، وعلى الفساد، وعلى الخرافة... الخ؛ فلتتخذ دواء وترياقاً، ولتتوقف عن اتخاذ حرزاً للبركة وكفى"، وضرب مثلاً بالتتار، الذين كان يقال عنهم: "إذا قيل لك إن التتار انهزموا، فلا تصدق"؛ في آخر المطاف هزمهم المسلمون، لكن بماذا؟

الجواب: باتباعهم لتعاليم القرآن الكريم.

ولقد قال "السير آرثر كيث"، الذي له كتاب حول "تاريخ مصر القديمة": "إن الإسلام دخل مصر بالقرآن لا بالسيف!"

وذكر وحيد الدين تجربته الخاصة، وكيف أنه يدعو جميع الديانات والأعراق والأيدولوجيات، ثم يناقشهم في قضايا العصر، وفي مشاكل العالم؛ ويوجد لهم أجوبة وحلولاً من القرآن الكريم؛ وما إسلام الكثير من الهندوس على يده إلا نتيجة لهذا العمل الدعوي العلمي المنهجي المؤسّس.

ثم ذكر أنه زار الولايات المتحدة، وألقى محاضرة في إحدى الكنائس، وفي نهاية المحاضرة قال له رجل: "إن عيسى يقول لنا: أحبّ عدوك، فهل

في القرآن آية أكثر شفقة ورحمة هذا المعنى؟!".

قال وحيد الدين: "نعم"، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)؛ فانظر إلى العدو كيف اعتُبر "وليًا حميمًا"؟!

ثم قال "وحيد الدين": نحن عندنا في الإسلام، لا يوجد عدو، وإنما جميع الناس صديق، لكن ثمة صنفان من الأصدقاء:

• صديق حقيق، وهو المؤمن.

• وصديق محتمل، وهو محل الدعوة، والذي ترجو أن يؤمن.

وهنا، ينقطع عني نفس الكتابة، ولي موعد مع وفود أخرى، لعل أبرزها اليوم، زيارة أستاذنا الدكتور "عبد الرزاق قسوم"، الذي حل ضيفاً علينا، وهو "رئيس جمعية العلماء المسلمين"، وفي القلب والعقل أسئلة كثيرة، واستفسارات عديدة، منها ما طرحته على الأستاذ "وحيد الدين":

١- عند الحديث عن المبادئ الكبرى، ثمة اتفاق بين جميع المسلمين؛

لكن عند التنزيل والتطبيق، تظهر الخلافات والتواءات؛ ما السبب؟

٢- كيف لنا أن نربط حضارياً بين الأفكار والأفعال؛ ونضمن أن التطبيق

ليس منفصلاً عن سياق العالم والحضارة، وأنه ناجع لهذا العصر؟

٣- ما هي أساليب ومناهج العمل لإحداث التواصل والتشارك بين

"الجزر الدعوية"، ومختلف التجارب الإسلامية، التي إن لم تختلف مع

غيرها، فإنها عادة لم يتم التنسيق بينها؟

والله ولي التوفيق.

موت العالم، وشجرة التوت^(٤٣)

لا أعرف لماذا قفز إلى ذهني هذا العنوان، مباشرةً بعد سماعي نبأ وفاة "حمامة العلم" الشيخ ناصر المرموري رحمه الله!..

• لأنَّ التوت نباتٌ شجره كبير وفروعه كثيرة، والشيخ الناصر كذلك: كبير بخُلُقِه، كبير بتواضعه، كبير بعلمه، كبير بحلمه... له فروع في كلِّ بيت، وفي كلِّ مدرسة، وفي كلِّ مَنْجَر... خيْزُه عَمَّ مَنْ حوله، لم يحرمه يوماً عن أحدٍ مهما قرب أو بعد، مهما أنصف أو أجحف؟!!

• أم لأنَّ شجرة التوت ثمارها حلوة طرية طازجة، والشيخ ناصر كذلك: لا يملُّ الجالسُ إليه، ولا يُسمع في حديثه إلاَّ الأدب الجمُّ، والحكمة الرفيعة، فقهه يسرُّ وتيسير على المستجير، ورأيه رحمة وبركة على المستنير؟!!

• أم لأنَّ شجرة التوت قديمة قدم البشرية، والشيخ ناصر كذلك: يصدق فيه ما ورد في رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه التي جاء فيها: "إنَّ الحقَّ قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحقِّ خير من التماذي في الباطل"؛ فشيخنا رحمه الله يدور مع الحقِّ والعلم وجُودًا وعدماً؛ لا يبالٍ في ذلك أَرْضَى الناس أم سخطوا، ما دام الحكيم العليم القديم قد رضي وقبل؟!!

• لأنَّ ثمرة التوت مفيدة جداً في حالات فقر الدم؛ والشيخ ناصر كذلك: نافع لأُمَّتِه في أحلك ظروفها، وترياقٌ لها حين فقرها إلى من

^(٤٣) بُعيد نعي الشيخ ناصر المرموري رحمه الله، الأحد، ١٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ / ١٥ مايو

تسترشد به، ومَنْ يأخذ بيدها إلى بَرِّ الأمان؛ فشيخنا عرق الأُمَّة النابض بدم الحياة، يزرع فيها الأمل، ويحطِّم الألم، وهو في ذلك لا ينتظر من الخلق جزاء ولا شكورًا؟!!

• أم لأنَّ ثمرة التوت شفاء لأورام الحلق واللثة، والشيخ ناصر كذلك: فصاحةً وحكمةً، وهو العلاج لكلِّ عِيٍّ، والدواء لكلِّ سخافة؛ هو شجرة الحكمة والبلاغة؛ ففقهه أدبٌ سلس، وابتسامته أفقٌ لا نهاية له؛ وروحه ظلٌّ ظليل للخلق جميعهم: كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم؛ فهو لا يفرِّق بين عبد وعبد، إلَّا بما رفع الله به بعضهم على بعض؟!!

• أم لأنَّ ثمرة التوت لها تأثير كبير في خفض درجة الحرارة؛ والشيخ ناصر كذلك: هو صمَّام الأمان، وهو الملاذ، وهو "تَرْمومَاتِر" المجتمع؛ يحفظ درجة حرارته، فلا ترتفع بفعل التهور والتزق والتعصُّب، وكلِّ ما من شأنه أن يزرع الفتنة، ويبسط الحقد، ويوغر القلوب بعضها على بعضها؟!!

• وعصير التوت -مع ذلك- يضاف إلى الأدوية بغرض التلوين وتحسين الطعم؛ ومَنْ غير الشيخ ناصر زينة للمجالس وبهاء للمحافل؟

• وجذور التوت -قبل ذلك- لها خواص مسهِّلة للمعدة والأمعاء وطاردة للديدان؛ ومَنْ غير الشيخ ناصر مسهِّلاً للأُمور، وطارداً للأدران؟

ولو أوجزنا القول لقلنا: "إنَّ الشيخ ناصر هو شجرة التوت، وإنَّ شجرة التوت هي رمز الشيخ"؛ فلکم كان محبًّا للطبيعة، منافعًا عن الجمال، مصاحبًا لأرباب المزارع والبساتين؛ له من الخصائص ما لشجرة التوت وأكثر، فحقَّ لنا اليوم أن نعهده، بدموع رقراقه وقلوب ضارعة، ونلقِي في روع مَنْ بقي بعده من العلماء والفقهاء أن "اثبتوا على الحقِّ، ودوموا على

العهد، كان الله معكم".

شيخي وأخي، أهمس في أذنك، وأقول:

تعين الواجب، ولا سبيل إلى أدائه وإبراء الذمة إلا في مجامع للفقهاء والفكر -بالمعنى الواسع- تجيب عن أسئلة الشارع بالتحقيق في أبعاد الشارع؛ وترفع الحرج عن الناس وقد كثر الهرج والمرج... بل، لتكون مناسبة وفاة الشيخ دعوةً للتسامح والمحبة، ونشر الأمل، والجد في العمل، والتخطيط للمستقبل... وصدق الله العظيم القائل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)؛ ثم صدق الرسول الكريم القائل: «موت العالم ثلثة لا تُسدُّ ما اختلف الليل والنهار».

اللهم ارفع أمتنا بالعلم والحلم، وبالقرآن والإيمان؛ وابعث فينا من يسدُّ ثلثة موت علمائنا مشرقاً ومغرباً؛ آمين يا رب العالمين.



تمنغست، قبلة العارفين^(٤٤)

دنيا الناس تتراقص بين الظواهر والبواطن، وعالم البشر تتنازعه الحقائق والأكاذيب، وسرُّ الوجود لا يدركه إلا صاحبُ حكمةٍ، ذلك أنه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

الحكمة عند بعض السادة العلماء هي: "الإصابة في القول والفعل" (الطبري)؛ أي هي: الأساس الثاني من أسس الرشد، في المنظومة المعرفية الرشيدة، والذي نعبر عنه بجملة: "حركية الفكر والفعل".

فلو أننا حكمنا الظواهر، واعتنقنا الأكاذيب، وطلقنا الحكمة، لقلنا إنَّ تمنغست هي: نهاية العالم، وخواء المدينة، والبعد عن الحاضرة.. وإذا تقدّمنا خطوة في هذا المنوال، قلنا: إنَّ تمنغست هي الطبيعة الجميلة، والتاريخ الطبيعي الخلّاب؛ وهي "المارابو" والأب "بيار دوفوكو"؛ وهي أعاجيب الطوارق، والعينة الأنثروبولوجية المتميزة... وكفى.

أمّا إذا توغلّنا إلى البواطن، وعانقنا الحقيقة، ثم اقترنا بالحكمة؛ فجملة القول في تمنغست، أنها: بداية العالم، وصلب الحضارة، لا بدالتها المادية، لكن ببعدها الشمولي.. إنَّ تمنغست بهذه الرؤية، هي: الإنسان، والإيمان، والإحسان... وهي: بديع صنع الله، وقبلة العارفين،

^(٤٤) فريق الرحلة الممثل لمعهد المناهج، يتكون إضافة إلى كاتب المقال، من: محفوظ جلمامي حاني، طه كوزي، مصطفى شريفي، سليمان باباعمي... بتنسيق من الأخ الصديق أبو بكر بهون علي. أمّا برنامج الرحلة كان من يوم السبت ١١ يونيو، وهو يوم الانطلاق من العاصمة، إلى يوم ١٩ يوم الوصول إلى العاصمة؛ قاطعين أكثر من ٤٠٠٠ كلم، بين الذهاب والإياب والتنقل داخل المنطقة. والحمد لله.

ومأوى الباحثين عن الخلاص.

في أقل من أسبوع حظينا برحلة ماراتونية إلى قلب بلدنا: تمنغست، ونحن جميعاً أسى وأسف أنها أول مرة، وأن جهلنا ببلدنا بات واضحاً فاضحاً، وما نحن في ذلك بدعا من الجزائريين؛ إذ يصدق فينا جميعاً قول القائل: "وضرب لنا مثلاً، ونسي نفسه".

والحق أن أهالي تمنغست بقديدهم وقديدهم، بصغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم... رحّبوا بنا، وأنزلونا أهلاً وسهلاً؛ لكن، كلُّ بطريقته ومن موقعه، لا على شاكلة السياحة الفلكورية المائعة، بل على مذهب الشاعر الفحل محمد مأمون نجم، وهو ينشد بلسان أفحاح تمنغست الشهامة:

إني لمن قوم

إذا ما صودرت راياتهم ظنوا الحياة حراماً..!

صبح تنفس في العروق.. يقول لي:

"نحيا كراماً.. أو نموت كراماً"..!

بدايةً من المساجد، حيث فتحت لنا أبوابها، وأعدت منابرها، ودعي مصلّوها؛ لنلقي عليهم درساً، وندوة، ومحاضرة: في المسجد العتيق^(٤٥) أولاً، ثم في مسجد فاطمة الزهراء ثانياً، وفي مسجد الرحمة ثالثاً؛ وفي كل ذلك كنا كـ"حامل تمر إلى هجر"؛ لا نعلمهم إلا لتعلم منهم، ولا نعظمهم

^(٤٥) موضوع درس المسجد العتيق: "واجب الألفة بين القلوب"، وندوة مسجد فاطمة الزهراء: "تربية الأولاد وبرمجة الوقت صيفاً"، ومحاضرة مسجد الرحمة: "شبهات حول القرآن الكريم والرسول الأمين، والرد عليها".

بمقالنا إلا ليعظونا بحالهم... فلا خَفَرَ الله لهم ذمّة، ولا نكس لهم راية. ثم في المدارس القرآنية كانت لنا جولات: من مدرسة الشيخ سلامة، إلى مدرسة الشيخ باعموري، وما بين هذه وتلك مشاريع تعليمية قد لا يعرف الناس قدرها، لكنها من عالم الملائكة محتدّها؛ إنها مصانع للرجولة، ومزارع للفضيلة، ومخابر للحكمة، ومراتع للأنس، ومرابع للأمل؛ من دخلها كان آمناً، ومن رفعها كان آمناً، ومن لازمها كان آمناً، ومن أمّاها كان آمناً.

وخلال وجبات الطعام، التي لا تقلُّ عن "العجل الحنيد" قدرًا، في أغلب الأحيان؛ كانت البركة تنزل علينا، ونسمات السكينة تعمّرنا، ولعلَّ الواحد منّا لو أصاح أذنيه لسمع نفحةً من الملائكة الأعلى تخاطب الملائكة: "أولئك القوم لا يشقى جلسهم... أولئك الجلساء، لا يشقى جلسهم". ومع محاوره العلماء المشايخ المربّين: باعموري، وسلامة، والتهامي، وتقذّة، والهداجي، وفيلي... وغيرهم كثير؛ مع هذه المحاورات نُبصر النورَ يغمر الكون عطفًا ورِيًّا؛ ونجد بشائر القبول مقبلة شوقًا وعشقًا؛ ونتأكد أنّ العلم له أهله، وأنّ هؤلاء هم أهله وذووه؛ هم ألصق الناس به، وأكثرهم وفاء لنفحاته.

ثم تأتي مديرية الشؤون الدينية لتفتح قلبها مهلّة بمقدمنا، حُسِنَ ظنّ منها، وكرمًا ووفاء وإخلاصًا من قبلها؛ وفي هؤلاء يصدق الحديث القدسي الزكي، الذي يقول فيه رب العزة: «أنا الله، لا إله إلا أنا، خلقتُ الخير وقُدْرته، فطوبى لمن خلقته للخير، وخلقتُ الخير له، وأجريتُ الخير على يديه».

ولا يمكن أن نغفل جنودًا للخدمة، لا تسمع منهم إلا الكلمة الطيبة،

تعلو وجوههم الابتسامة في كلِّ حين، لله درُّهم وهم يخدمونك ويعتذرون إليك؛ لله درُّهم وهم يُعطونك من حالهم ومالهم ومقالهم، كأنَّ الذي أعطوك هم آخذوه! ولنذكر من هؤلاء: إبراهيم، والصديق، وشريف، وخموين، وعبد الرحمن، ومحمد، وأحمد... وغيرهم ممن عرفه الله وجعلوه.

هذه ومضة، وخاطرة، وإطالة، وعبرة، ونكتة... مما يمكن أن يقال عن هذه الرحلة المباركة، إلى تمنغست العليَّة؛ دون أن ننسى جمال طبيعتها وآثارها، وطيب مأكُلها ومشربها، وعذوبة شايها ولبنها، وسلاسة كلامها ولسانها.. ولقد سألتني المشايخ -وبخاصة الإذاعة المحلية الوفية- "ما هي انطباعاتك عن تمنغست؟" ..

فقلت، ولم أتردد هنيهة: لا عيب فيها ولا فيكم، إلَّا أنَّ زائرکم ينسى أهله وبلده!

ولقد وصلتُ إلى أهلي فلقيتهم وهم متوجِّسون خيفةً؛ وما ذلك إلَّا أنَّي نسيتهم بالفعل؛ وصدق مَنْ قال في مقام آخر، نتمثله اللحظة في مقامنا هذا: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة: ٢٠٠).

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك... والحمد لله ربِّ العالمين.



نفضة من المغرب الحبيب^(٤٦)

رمضانية النكهة، إيمانية الروح، أخوية المنهج؛ هي أيامٌ للحفر والنسج، في ربوع بلاد قريبٍ بعيد؛ وهو -رغم أنف الشائنين- إلى القلب حبيب؛ جَمَعَتِنا الخدمةُ الإيمانية والقرآنية على سفوحها الربيعية الوردية العطرة؛ حيث تزول كلُّ الاعتبارات، وتولد من رحم الزمان جميع الإمكانات، وتنمحي في منطقتها وبمعقوليتها المستحيلات والممنوعات.

أسبوعٌ ويزيد، في جنة المعرفة والعرفان، نطالع تارة، ونحلل أخرى، ونعتبر مرة، ونفكر أخرى؛ ثم نسج بخيط من حرير قماشاً ربانياً ملائكياً سماوياً، مع إخوة لنا في الله منذ الأزل؛ ما عرفناهم من قبل عن كُتب، إلا أن الصفات جمعتنا وصهرتنا، ووحدة الغاية والرسالة والهدف خبرتنا وطهرتنا؛ حتى لكأن الواحد منا: سواء أكان تركياً، أم مغربياً، أم جزائرياً... أم من أي جنسية ووطن وجغرافية كان؛ حين تلقاه أول وهلة، فتعانقان عناق الأحبة المشتاقين، ثم ما يلبث أن يسكن إليك وتسكن إليه، فيقاسمك الهمَّ والهمة، ويناصفك الرأي والفكرة، ويفتح لك داره على مصاريعها، ويستأمنك في أسرارهِ؛ ثم يأويك ويُطعمك ويسقيك، وهو يعتذر إليك لعلَّه قصر، والحق أنه وفَّى وكفَى... فتقول بملء فيك: "يا سبحان الله، هذا أخ لي، عرفته من قديم، وها اليومَ وقد نسيتَه بفعل جهلي، وغفلتي، وظنوني المستوحشة، وحساباتي الضيقة، وسياساتي الخرقاء... ها اليومَ أتذكره، وأؤوب إليه، فألقى الدفء والحنان بين ربوعه... ألا ما أعظم

^(٤٦) الدار البيضاء / المغرب، ظهر السبت، السادس عشر من رمضان المبارك، ١٤٣٣ هـ.

الأخوة في الله والملة، لو يعقل العاقلون" ..

مرة أخرى، وأخرى... وثالثة، ورابعة... أكرر: "ألا لعنة الله على ضيق الأفق. لعن الله الاعتبارات السالبة، والانتماءات القاتلة، والمحسوبيات الفاتكة؛ تلك التي توهم المرء أنه محور الكون، وأنه الوحيد على الحق، والآخرين بجموعهم على الباطل؛ تلك التي تغري الساذج فيظن أنه الأفضل والأتقى والأذكى، فيحصر الخير في دائرة مغلقة، وهو لا يدري أنه إنما تجرأ على الله وآلى عليه سبحانه، إذ حجب ألوهيته وربوبيته، ومنع رحمته وكرمه، وقصر حبه ورعايته... عن العالمين؛ والحق أن صاحب الأمر جميعه، ومالك الشيء كله، وخالق الخلق أجمعين؛ الحق أنه علمنا أن نقرأ دومًا، في صلواتنا ودعواتنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)؛ حتى لا نقع فريسة بين مخالب وأنياب أنانياتنا، وجغرافياتنا، ولغاتنا، ومذاهبنا، وتاريخنا، وقناعاتنا، وثقافتنا، وسياساتنا، وسخافاتنا، وحماقاتنا، ورعوناتنا، ولوثياتنا..." ولقد والله وقعنا.

في هذه الربوع الطيبة الطاهرة خبرنا الخدمة في الله والله، كيف تنفذ القلوب التواقة بفعل "تأشيرة الوجدان"، وكيف أن أهل هذه الأرض السخية المعطاء، فتحوا لها بعضهم وجميعهم، وسخوا بما يملكون وبما لا يملكون، ثقة في الله، ووجدوا فيها ملاذًا آمنًا لأحلامهم، وشفاء وترياقًا لأسقامهم، ومدرسة متزنة لأهلهم وذويهم، ومنهجًا راشدًا يضبط حركاتهم وسكناتهم... نعم، إنهم وَعَوْا ذلك، وصدقوا الله، فصدقوا أنفسهم؛ ولم يترددوا هنيهة في الاستجابة لداعي الخير، وفي الاستماع للرجل الذي جاءهم من أقصى المدينة، لا لينصّب نفسه حاكمًا عليهم أو مرجعًا، ولا ليبلغ خصوصياتهم وذواتهم؛ لكن ليذكرهم وليحملهم على ﴿يَا قَوْمِ

اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿يس: ٢١﴾.

الكثير هنا اكتشفوا "الفعل والحركة" يوم انغمسوا في "النور الخالد"، ويوم اقتحموا "صرح الروح"، ويوم أعلنوها مدوية: "ونحن نبني حضارتنا؛ والحال أنه لا ينقصهم فهم، ولا يخونهم إدراك، ولا يعانون من ضعف الذاكرة، ولا يشكون من الجهل بأمر الدين؛ لكنهم هنا، وهناك، وهناك... الكلُّ يسأل:

- كيف نحول علمنا إلى عمل؟
- وكيف نجعل القرآن حديقة غناء مزهرة بشتى أنواع الزهر والورد والزنبق، تبعث شذاها إلى الناس كافة؟
- وكيف يمكن أن ننجو من "الدائرة الفاسدة"، وننطلق في الفعل موقنين صادقين محسنين؟
- وكيف نحول بلادنا، والعالم أجمع، إلى جنة فردوسية "استنادا واستمدادا؟
- كيف؟... هنا... وهناك...

سؤال عميق دقيق حقيق؛ يُنبئ عن حرقه واحتراق، ويعبر عن هم واهتمام؛ إنه سؤال لا تلوكة الألسن لمجرد الاستمتاع، سؤال لا تردده الأقلام لداعي الحفظ والتكرار؛ لكنه سؤال يحفر في القلوب المؤمنة المتألّمة، ويوقظ العقول النبهة المتوقدة، لسان حالها ومؤداها ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَاغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢١)، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠)، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧)، و﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)...

السائلون الحائرون المنصفون، هنا... وهناك... يقولون:

"آمنّا ربَّنَا وصدّقنا، نعتزّف أنّ القصور والتقصر منا نحن، وأنّ الوهن والخطل فينا نحن، وأنّ ديننا وإسلامنا كامل لا يقدره إلى الكمّل".
الصادقون المختبون، يدعون ويلحون... من هنالك... ومن هنا:
"ربنا أعننا في تغيير ما بأنفسنا، وأعدنا إلى سدة الشهود والشهادة مرة أخرى، بنفس قرآني، وروح محمّدي، ونمودج راشدي.
ربنا، حقق فينا قولك الحق الذي آمنّا به: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)..."

ربنا إن تضلنا، ونحن المذنبون العائدون، المتشبهون بمطرقة بابك...
إن تردّنا ربنا نردّد دعاء نبيك الكريم: «يا ربّ، إن تهلك هذه العصابة، فلن تُعبد في الأرض أبداً... يا رب، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»...



الاختبار العسير!

على إثر تشويه صورة حبيبنا رسول الله ﷺ (٤٧)

كلّما حدث أمرٌ حقير أو عظيم، في أيّ زمان من الأزمنة، وفي أيّ مكان من الأمكنة، كان اختباراً وامتحاناً لمن قامت عليه الحجة في ذلك الأمر؛ إذ لا شيء في الدنيا يقع اعتباطاً، أو سهلاً، أو بغير حكمة؛ ولا شيء بتأناً ينُدُّ عن إرادة الله وعلمه ومشئته، سبحانه.

فما وقع، ويقع هذه الأيام، من حملة لتشويه صورة أعظم الخلق محمد ﷺ، بكل الأشكال والألوان، وبجميع الوسائل والإمكانات، تسندها تخطيطات واستراتيجيات؛ كل هذا ليس عبثاً، ولا هو خارج قدر الله الحكيم العليم؛ سبحانه.

وما كان أبو لهب، وأبو جهل، ومسيملة، وأبي... وغيرهم من الكفار والمنافقين والمعاندين؛ ما كانوا عبثاً في مسيرة الرسالة المحمدية المباركة؛ وجودهم حكمة ليبلي الله إيمان المؤمنين، وعمل العاملين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وإني أجد هذه الحملة، وغيرها، اختباراً عسيراً لكلّ الناس، ولكلّ الأطياف، ولكل المؤسسات، ولكلّ الأمصار، ولكلّ التوجهات، ولكلّ الاتجاهات؛ بلا استثناء. وأوّل من يتعرّض للاختبار هو "أنا"، بها أبدأ، ومنها أنطلق، وعنّها أسأل، وإياها أحمل الواجب؛ فهل يمكن أن أتركها

(٤٧) صبيحة السبت، ٢٨ شوال ١٤٣٣ هـ / ١٥ سبتمبر ٢٠١٢ م.

خارج دائرة الأمر الرباني، والحكم الإلهي، والواجب الشرعي؟!
يا نفس، ما مدى حبك لرسول الله ﷺ؟ أهو حبٌ فلكلوري مناسباتي
أنّي عابر؟ أم هو حبٌ إيمانيّ رساليّ دائم؟ ثم ماذا فعلتِ وتفعلين في حقه
ﷺ: هل كنت في مستوى عصرِك، وهل أعددتِ العدة الكافية لنصرته،
وهل جهّزتِ الأسباب والمقدمات للانتصار له؟ أم أنك في دوامتكِ
تعمهين، وعن التخطيط تُعرضين، وللظروف تستجيبين؛ ثم ما تلبثين أن
تدخلِي دوامة الحياة، وتدوري في دائرة مفرغة إلى حين؟

علميًا ماذا أعددتِ؟ تربويًا ماذا أعددتِ؟ إعلاميًا ماذا أعددتِ؟
اقتصاديًا... سياسيًا، فيئًا... وهكذا في كلّ مناحي الحياة؛ أسأل نفسي،
وكلُّ عاقل يسأل نفسه: "ماذا عملت فيما علمت؟"، ﴿وَلْتَسألَنَّ عَمَّا كُتِبَ
تَعْمَلُونَ﴾ (التخل: ٩٣)، ﴿وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

إنه اختبار عسير لـ"العلماء" اليوم؛ وللتجمّعات العلمية العالمية،
ولهيئات الفتوى، ولوزارات الشؤون الدينية: ترى هل تصوغ المخططات،
وتجيب على الإهانة بما يليق؟ أم أنها تبقى مثل الأطفال على شاطئ
الإرادة والعصر، تاركة المبادرة للسياسة أو للشارع، مبررة لهذا أو لذاك،
ناقلة لأدلة في أغلب الأحيان مبتورة، مجتزئة، كما رأينا هذه المرّة من
بعض مجامعنا الفقهية المحترمة؟ للأسف.

ثم، هو اختبار عسير لـ"المدارس"، وللمناهج التربوية، وللمقررات،
ولوزارات التربية؛ بل لكل معلم ومدير وولي وتلميذ... فهل هي تسير
على وقع رسول الله ﷺ؟ وهل تخذته أسوة وقودة، ومارست التربية بناء
على معياره هو؟ أم أنها تغني خارج السرب، وتصفّق لديوي وروسو
وغيرهما في عرس المدنية السمج؟

هو اختبار، لـ"مؤسّسات الإعلام"، هل أهمّها أمرُ قرآنها ورسولها، وهل يهتمّها أمر دينها، كما أمر الله؟ أم أنّ مشادات كرة القدم، والانتخابات الحامية الوطيس، وفصائح الناس... كلُّ أولئك أولى في أجندتها من الانتساب إلى خير البرية، ورسول البشرية، محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؟!

ثم هو امتحان للمال، ولصاحب المال؛ أمين الحرام هو أم من الحلال؟ وهل يُنفق فيما لا يعني، سرفاً وسفاهة؟ أم أنه ينفق ليني واقعاً جديداً، ويؤسّس عهداً جديداً، تكون فيه الأمة متمكنة متحضّرة متفوّقة في جميع المجالات، ويكون فيه المال وقود هذه النقلة التاريخية الإيمانية المنشودة؟ هو امتحان، لا يخوضه واعياً اليوم -للأسف- إلاّ الإنسان البسيط، وهو يحترق وينطلق، وقد يخطئ أو يتهوّر؛ لكنه على الأقل يملك قلباً مفعماً بالحبّ، وفؤاداً خالصاً مرهفاً؛ أمّا الكثيرون ممن يشار إليهم بالبنان فقد باتوا أرباب مصالح، وأصحاب حسابات، لا يؤمّل فيهم الكثير، ولا يرجى من بابهم الخير.

هو اختبار، وهو امتحان إذن؛ والإجابة لا تكون في يوم، أو يومين؛ وإنما هي طوال الحياة ودائماً، ما دام ثمة إنسان، وما دام هنالك خير وشرٌّ؛ ونتيجة الاختبار لن تعلق إلاّ يوم الحساب؛ فلينظر كلُّ مؤمن كيف ينجّي نفسه يوم الفرقان، ويوم التغابن، ويوم يلقي ربه؛ سبحانه وهو القائل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ١٧).

رحم الله العلامة بديع الزمان النورسي، ففي حوالي سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م، حدث له انقلاب كليّ في حياته، إذ علم من الوالي "طاهر باشا"

أن أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم، ثم سمع أن وزير المستعمرات البريطاني غلادسون، صرّح في مجلس العموم البريطاني، وهو يخاطب النواب، قائلاً: "ما دام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نحكمهم حكماً حقيقياً، فلنسنع إلى نزعه منهم". ولقد زلزل هذا الخبر كيان النورسي، وأقضى مضجعه، فأعلن لمن حوله: "لأبرهننّ للعالم بأنّ القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"... ثم حبس عمره كلّ للخدمة الإيمانية والقرآنية؛ ولاقى في ذلك ما لاقى من معاناة، ولكنه خرج منتصراً مظفراً، راضياً مرضئاً بحول الله.

واليوم، ليس مقبولاً أن تمرّ علينا الإهانات لمقدّساتنا وعقائدنا وديننا وإسلامنا، ثم لا يتغير شيء في حياتنا، وفي تصوراتنا، وفي مواقفنا، وفي أفعالنا، وفي اختياراتنا.. ولذا نسأل منّا يحمل قلباً مفعماً بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبكتاب الله الحكيم ورسوله الكريم، يقف حياته ومهجته للدفاع عن إيمانه، ونصرة دينه، بموجب "التدافع"، وقد قال جلّ من قائل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)!!

فهلاً كنا جادين في تحمّلنا لأسئلة الاختبار العسير، وهلاً احترقنا شوقاً وهماً وهمّة، وانطلقنا علماً وعملاً وتخطيطاً؛ فإن فعلنا كان الله معنا، وكان رسولنا وحبيبنا شفيعاً لنا يوم اللقاء؛ وإلاً كان خصماً وخصيماً لنا، والعياذ بالله.

ولا يزال حديث الحوض يقرع آذاننا، ويهدّد قلوبنا، ويزلزلنا زلزالاً شديداً، وقد ورد فيه:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه أتى إلى المقبرة فسلم على أهل المقبرة فقال: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».. ثم

قال: «وددتُ أَنَا قد رأينا إخواننا».

قال، فقالوا: "يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟!"

قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد، أنا فرطهم على الحوض».

فقالوا: "يا رسول الله، كيف تعرف من لم يأت من أمتك بعد؟"

قال: «أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غرٌّ محجلة بين ظهرائي خيل بهم دهم، ألم يكن يعرفها؟»
قالوا: "بلى"

قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غرًّا محجلين من أثر الوضوء، أنا فرطهم على الحوض».

ثم قال: «ألا لئذادن رجال منكم، عن حوضي كما يزداد البعير الضالُّ، أناديهم: ألا هلمَّ فيقال: إنهم بدّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا»..

فهل يا يرى نأتي رسولنا الحبيب غرًّا محجلين، أم أننا نأتيه -ونعوذ بالله من ذلك- ثم نداد مثل "البعير الضال"، ثم يقول لنا "سحقًا سحقًا".
هذا هو الاختبار العسير!

أما نبينا وقرّة أعيننا، فيكفيه أنّه وعد من ربّه وعدًا حقًّا، أنّه سيعلي من شأنه وقدره، وسيجعل أعداءه عبرة لكلّ معتبر، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٧).

والله يقول الحقّ، وهو يهدي السبيل.

